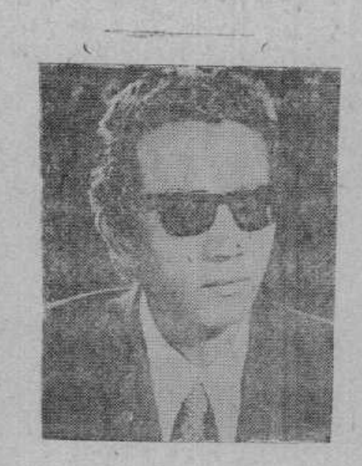
الأبيض والأسود
و
قصص أخرى

بقلم

جمعه محمد جمعه

١٩٧٧

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية



جمعه محمد جمعه

* يكتب القصة القصيرة ، والقصة الطويلة ، والرواية .
* بدأ نشر أعماله القصصية عام ١٩٧٣
* نوقشت له أكثر من قصة بالبرنامج الثانى ، والبرنامج العام بالإذاعة .
* فازت قصته الطويلة « قلب الأم » ، بجائزة مجمع اللغـــة العربية عن عام ٧٤ — ١٩٧٥
* نشرت قصصه القصيرة فى المجلات المصرية والعربية .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الحياة . .

أمى ، وأبى ، وإخوتى . .

أمسى ، ويومى ، وغدى . .

إلى الحياة . .

عملى ، وكفاحى ، ونجاحى . .

إلى الحياة . .

أصدقائى ، وأقربائى ، ومعارفى . .

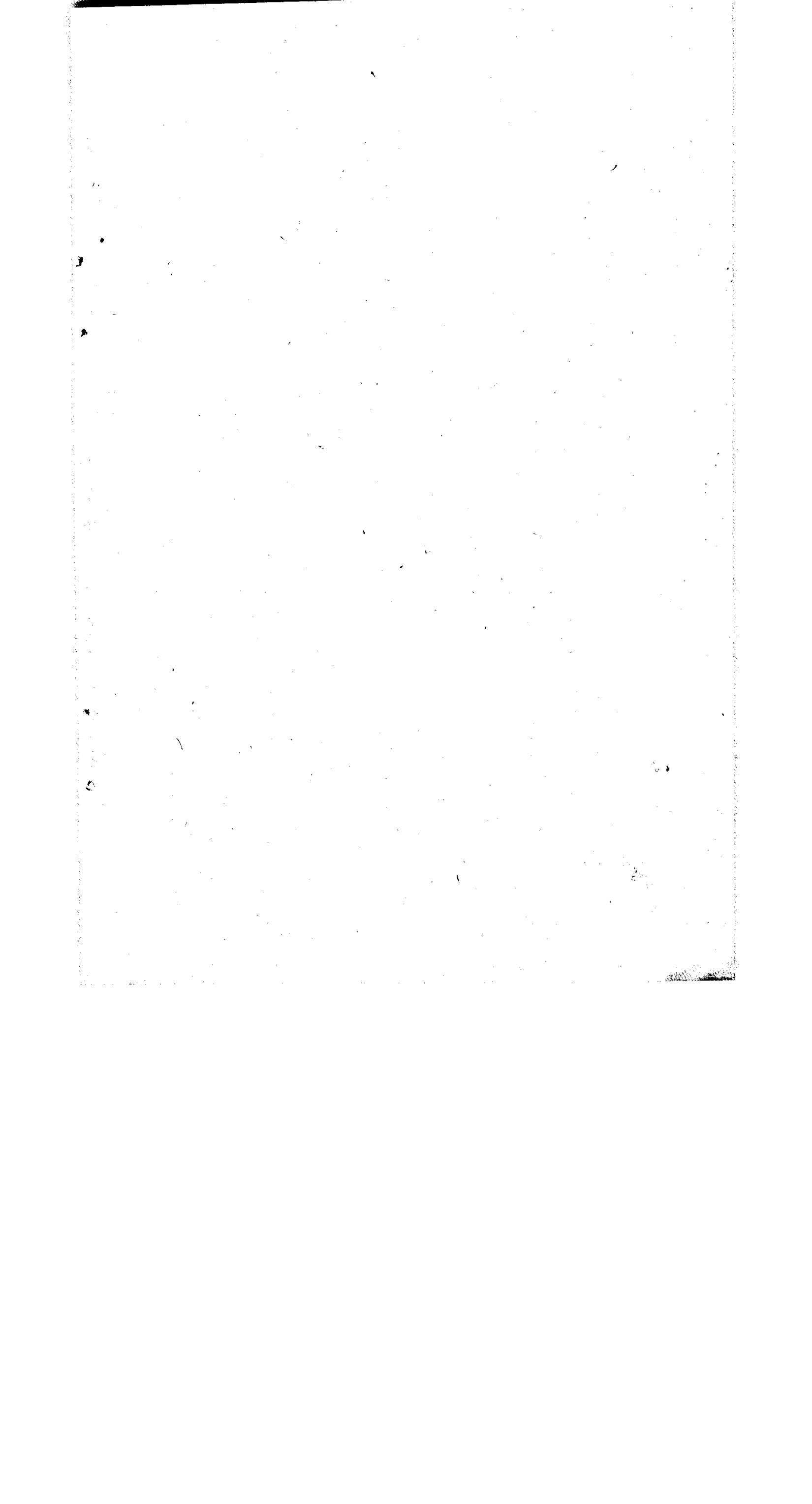
إلى الحياة . .

إلى رفيقة العمر زوجتى . .

جمعة محمد جمعة

الأبيض والأسود

« الأسود والأبيض محال أن يلتقيا ..
حكمة المحدثين .. ابتكار وتجديد ..
هكذا الحال الأبيض أبيض ..
والأسود أسود .. » ..



كنت لم أتناول إفطارى بعد .. فكرت وأنا أمر أمام مطعم أن أتناوله .. ما أصعب الاختيار ؟ .. ما الذى يمكننى تناوله فى هذا الصباح البارد ؟.. فول وفلافل .. — لكن — لا .. رغم اشتياق فانى أمقته من أعماق .. فهو عدو معدتى اللدود .. كرهته إلى حد السأم .. منذ متى ؟ .. لا أدرى .. ربما عام ، وربما عامين .. رغم أنى كنت معتاداً تناوله يومياً فى الإفطار .. ألفته معدتى لفترة طويلة من الزمن . والآن .. تأبى هضمه ..

تركت المطعم ورائى ، وأنا أمنى نفسى بإفطار آخر ألذ وأشهى .. ثم .. — تذكرت — ان قرشاً واحداً فى جيبى .. والمبلغ المحترم ماذا لو أجلت إيداعه فى صندوق التوفير إلى الغد .. لكن لا .. لن أتوانى عن إيداعه اليوم .. بالأمس كان معى نقود كثيرة .. كان بإمكانى تناول أى إفطار طيب تهواه نفسى .. أما اليوم .. فكل ما أملكه قرشاً واحداً ، والمبلغ المحترم .. خمسون جنيهاً فى جيبى .. شعرت بشعور الأغنياء .. الفخر .. كنت فخوراً بأنى غنى .. فى جيبى مبلغ محترم يسبغ على من فضله إحتراماً وفضلاً .. شعرت بأنى أسير فوق الطوارين لا طواراً واحداً .. أسد الطريق على المارة فيفسحون لى .. رأسى تتساوى فى رفعتها وشموخها مع هامات العمارات

الشاهقة .. يدى فى جيبى ، ولسان جيبى يعلن للعالم أجمع عن ثرائى .. فى جيبى مبلغ محترم ..

جذبت انتباهى لافتـــة صفراء معلقة كتب عليها « كوردنيرى العـائلات » حذائى مغبر بالتراب ، يحتاج إلى « تلميع » .. يقول بعض أصدقائى « من حذائك تعرف شخصيتك » .. لمـاذا ينظر أغلب الناس دائمـاً إلى السفح ؟ .. لمـاذا لا يعرفون شخصيتى من هندسة شعرى ؟ .. أو من وسامة وجهى ؟ .. أو من جمال طلعتى ؟ أو من حديثى ، وتصرفاتى ؟ .. اعتدت أن أســـير بحذاء لامع .. الناس يدلفون إلى المحل .. تباطأت خطواتى .. هممت بالدخول .. فجأة .. — تذكرت — ان معى قرشاً واحداً ، والمبلغ المحترم .. تراجعت خطواتى إلى الوراء .. السير على الطوار لصق الجدران أسلم .. والوصول إلى الهدف من أقصر الطرق أفضل ..

قرب مبنى صندوق التوفير توقفت .. ماذا لو طالبنى الموظف ببعض القروش تبرعاً منى للفقراء ؟ .. « معونة الشتاء » .. أربعة قروش على الأقل « للغلابى والمساكين » .. عضت أسنانى شفتى .. ما الحل ؟ .. معى مبلغ محترم سأودعه .. وليس فى جيبى قروش قليلة حتى للفقراء والمساكين .. يا للتعساء .. ليس لهم نصيب .. بأى وجه سأنظر إليه ؟ .. وأين أجد المفر من نظراته .. وأية كلمة ترحمنى من إصراره ..

شدتني معدتي إلى الزجاجات البيضاء المرصوصة بعناية .. فاكتشفت أني أقف أمام « بقال » .. معدتي أعلنت عن تبرمها ببعض التقلصات .. هكذا عودتها .. قال لي صديق في معرض حديثه عن الغذاء الجيد .. « ان تناول اللبن للكبار عديم الفائدة لأن فائدته الوحيدة تنمية العظام عند الأطفال والصبية » .. لماذا إذن اعتاده الناس .. الكبار قبل الصغار ..

تحسست المبلغ المحترم ، وشعرت بالدفء يسرى في أوصالي .. يسرى من جيبي إلى شراييني .. كأن قلبي قد ترك المهمة إلى المبلغ المحترم ليأخذ قسطاً من الراحة .. « القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود » .. حكمة قالها الأقدمون .. بلا إرادة أخرجت القرش من جيبي وتفحصته بعيني خبير .. كان ناصع البياض .. انشرحت لحظة خاطفة ثم دسسته في جيبي ثانية ..

« الأسود والأبيض محال أن يلتقيا » .. حكمة المحدثين إبتكار وتجديد .. هكذا الحال .. الأبيض أبيض ، والأسود أسود ..

رائحة الفلافل الطازجة تتسلل إلى خياشيمي .. تلفت حولي أبحث عن مصدرها .. من أين جاءت .. حلم يقظة .. القرش الأبيض في جيبي يرتجف من برد الصباح .. تقشعر أصابعي كلما لامسته فتركته يضيع داخل الجيب .. وأحاطت بالمبلغ المحترم ..

ماذا يحدث لو « كسرت » بلغة اليمني خمسة جنيهات ؟ .. ماذا أقول له لو جاء يسألني إن كنت أهواه .. آه .. الحب .. ماقيمته بلا مال .. وما قيمة المال بلا حب .. كلاهما عاشق متيم بالآخر .. الصوت الحنون ينساب من المذياع .. كراسي المقهى مرصوصة في عناية لإجتذاب زبائن الصباح .. ما أجمل أن يتناول المرء كوباً من الشاي « بالحليب » مع استراحة قصيرة لاستعادة النشاط ..

عادت « معونة الشتاء » تؤرق بالي .. كيف سأتصرف .. هل أدعه يخصم أربعة قروش من المبلغ المحترم .. سخيفة .. هل أرجوه أن يرحمني .. لن يتركني بلا إحراج ، وبلا تجريح ، وبلا خدش للحياء ..

« لو كان الفقر رجلا لقتلته » .. قالها سيدنا على رضى الله عنه وأرضاه .. وأنا .. يحق لى أن أقول « ألف لعنة ولعنة على الفقر » .. أفلتت منى ضحكة ساخرة .. لست فقيراً .. معى مبلغ محترم .. جعلنى أكثر شموخاً من العمارات .. أمسك بالسحاب .. عملاقاً لم تر الدنيا مثله .. لسان جيبى يعلن للعالم عن ثرائى ..

ما أجمل أن يكون الإنسان غنياً !! .. وما أجمل أن يحيا بلا هموم !!

وقفت أمام الموظف .. دفعت إليه المبلغ بنظرات ملؤها الحسرة

والألم .. تمهل الموظف قليلا .. أخرج من جيبه سيجارتين «كليوباترا» ، وضع إحداها بين شفتيه ، وألقى بالأخرى فى «الدرج» أشفقت على حاله .. لو كنت مكانه لصرت كالكلب المجنون المطارد.. لصرت أبلهاً .. ترى أى أحلام تراوده فى ذهابه ومجيئه .. وأى خواطر تدور برأسه ؟؟..

تناول المبلغ ، وتفحصه بعناية .. خمسة .. خمسة .. وتفحصه ثانية .. ثم رفع رأسه إلى مادا يده بإحداها قائلا :

ــ خذ هذه الورقة .. غيرها من البنك ..

أمسكت بالورقة وتفحصتها .. كانت سليمة مائة فى المائة .. القامة تبدو جميلة المنظر .. والمدائن ترفع هاماتها إلى عنان السماء .. قلت متسائلا :

ــ مالها ؟ .. إنها خمسة جنيهات مصرية و ...

قاطعنى قائلا :

ــ طبعة قديمة ...

ثم نادى زميلا له وسأله :

ــ ما رأيك فى هذه الورقة ؟ ..

يقول هذه الورقة .. ألا يعلم قيمتها ؟ .. انه يعلم لكنه يتصنع

الغباء . . خمسة جنيهات . . يمكنه أن يحل بها أزمته المالية . . والنفسية . . و ... كما يمكنها أن تحل أزمة خمسة بيوتات . . بل عشرة .

أخرجني زميله من خاطرتي وهو يدس الورقة في يدي مرة ثانية قائلا :

— أنها متداولة في السوق لكن محظور علينا استلامها . .

خرجت إلى الشارع ، وتنفست الصعداء . . « بركة اللي جات منه ماجاتش مني » . . ، « وجالك الفرج يا بائع اللبن ، ويا كوردنيري العائلات ، ويا مقهى الحرية ، ويا أول فقير ستلقاني سأمنحك القرش الابيض ، ويخلف علينا ربنا » . .

سرت أدندن بأغنيتي المفضلة . . « ماذا أقول له » ؟؟ . . كنت أردد بلا وعي ولا تفكير . . — فجأة — هبطت مواضع خطواتي . . وتسمرت قدماي . . دفعت خطواتي بصعوبة بالغة إلى أقرب « عامود » من أعمدة الإنارة المطفأة . . أسندت ظهري إليه ، وسرحت بنظرتي الغاضبة . . ماذا أقول له لو جاء يسألني . . أين الخمسة جنيهات الباقية ؟ . . لماذا ؟ . . وكيف ؟ . . اني . . اني ألف أمقته . . ألف أمقته .

احتقـــار

«آن الأوان كى تستريح نبضات قلبى
قلبى المتعب ، وروحى المثقلة بالهموم ..
المملوءة بالخدوش ، وحياتى التى لا طعم
لها ولا لون ..»

القسم الأول

- ١ -

عشر سنوات .. فيها شهور وأسابيع وأيام ، وفيها ساعات ودقائق وثوانى ، فيها شهيق وزفير ، وفيها نبضات قلب أريده الآن أن يستريح . أجل .. فلم أتقدم قيد أنملة عن مكانى الذى وجدت نفسى فيه يوم استلمت أول وظيفة لى فى حياتى .. ويوم غزت الأحلام والأمانى خيالى .. وترعرع الأمل فى أن أغير كل حياتى .. بل وحياة أسرتى أيضاً التى عانت معى — وأنا طالب — الفاقة ، الضائقة ، شظف العيش .. وتراءى لى فى مرتبى كنز ثمين سأتقاضاه كل شهر .. سيدخل المال جيبى بعد سبعة عشر عاماً من الإفلاس الكامل .. قضيتها صابراً .. مؤملا نفسى بالوظيفة المحترمة ، والراتب الطيب .. سأبدأ حياتى الحقيقية .. وماذا بعد الوظيفة ؟ .. الزواج .. ستهرول أمى للبحث عن عروس ملائمة .. وتدخل الفرحة بيتنا بعد طول عناء .. وستعرف المسرة طريقها إلى قلوبنا بعد طول جفاء ..

واستلمت العمل . انتابتنى نشوة السرور وأنا أتعلق فى الأتوبيس أو الترام ذاهباً أو آيبا من أجل لقمة العيش .. صرت كالموظفين الذين تمنيت أن أكون مثلهم .. أخرج صباحاً فى السابعة وأعود ظهراً فى الثالثة .. أوقع فى دفتر الحضور والانصراف .. وكل شهر أوقع فى قسيمة المرتبات ، وأقبض الجنيهات وأحصيها ، وأقسمها بالعدل والقسطاس .

وسارت الحياة على هذا المنوال .. نفس طريق إلى محطة الترام لم يتغير .. الشارع بكل معالمه صار راسخاً فى ذهنى .. منطبعاً فى ذاكرتى حفظت خطواتى طريقها فوق الطوار حتى محطة الترام .. نفس الوجوه التى ألقاها كل يوم . . ألفتها من طول معاشرة . . حدث مرات كثيرة أن اختلطت على أرقام الأتوبيسات .. لكن لم تختلط على وجوه الركاب .. فاكتشف أننى أخطأت الأتوبيس فعلا .. لاشىء جديد .. الأسرة هى الأسرة .. الزملاء هم الزملاء .. الشارع هو الشارع .. التوقيع هو التوقيع .. المرتب هو المرتب .. حدث أن صرت أفنديا وانتهى الأمر .

بضع سنوات وجد الجديد في حياتي .. كان ذلك يوم رأيتها ..
شدني حسنها إليها فركبت الترام .. وجلست في مقعد خال أمامها ..
انبهرت عيناي بجمال محياها ، وجهها المستدير المرمري الشفاف ..
كان يتبدى أحياناً أمام إمعاني النظر كالبدر المضيء .. كان جلد وجهها
شفافاً لدرجة أن عروق الدم التي تغذي بشرتها كانت تبدو لي ظاهرة
بوضوح .. كما تخيلت أني أرى ريقها أثناء بلعه بادياً خلال عنقها
الأملس المستدير .. أما شفتاها الدقيقتان الرقيقتان المحمرتان قليلا
فكانتا قبلتي أينما يممت وجهي .. واجهتي التي أرى بها الدنيا والحياة
والناس .. ومن خلال عينيها رأيت البحر الأزرق الصافي .. رأيت
عمقه والحياة الزاخرة فيه .. شدتني فتنتها إلى انتظارها كل صباح حتى
أسعد بالنظر إليها .. وعلق بذهني فستانها السماوي المحتشم .. والرجل
الذي اعتدت رؤيته إلى جوارها ، وبينهما عصا تستند إلى المقعد ..
كان أشيب الرأس .. جعدت السنون بشرته .. وهالة من السمرة ترقد
تحت عينيه .. خلته أباها .. فكنت آراه ملازماً لها دائماً في مقعدها ..
وإذا حدث ولم أجد مقعدي شاغراً وقفت إلى جوارها ، وأظل على
تحديقي فيها حتى أغادر الترام .. واللوحة الجميلة لا تفارق ذهني هي
والرجل ، والعصا بينهما كالخط الأبيض في البكور يشق صفحة
السماء .

سعدت كثيراً بأحلام الحب .. وسعدت أكثر بصورتها التى كانت تهدهدنى فأنام .. وتملأ نومى بأحلام جميلة رائعة .. وأزددت بها شغفاً يوماً بعد يوم .. وحلماً بعد حلم .. وابتسامة بعد ابتسامة .. وتبادلنا النظرات .. ثم تبادلنا الكلمات ثم تعارفنا .. ولم أجد فرصة سانحة لطلب مقابلتها كشكل الرفاق فى أى مكان ..

كانت فرصة لقائى بها بعيداً عن الترام وضوضائه فرصة ذهبية ، فهل يجود بها القدر بعيداً عن الترام ؟ ، وعن فضول ركابه ؟ هذا عدا مايدور فيه من مشاجرات ومناكفات ومشاحنات ومساخرات .. فعربة الترام حياة كاملة .. مدينة مصغرة تضم من الناس كل شكل وكل لون . كل مستوى .. كل طباع البشر .. ولا تخلو بالقطع من لقاء بين محبين .. وكلمات رقيقة وابتسامات حانية وهمسات لطيفة ..

تعلقت بنادية .. وازددت شغفاً بعملى الذى أتاح لى هذا الحب .. فلولاه ماذهبت يوماً إلى هذه المحطة ، ولا رأيتها ، ولم أتأخر يوماً عن العمل ، وتمنيت أن يكون يوم الجمعة يوم عمل ، ونظر إلى زملائى فى العمل بدهشة متسائلين عن سبب تغير أحوالى .. فقلت لهم الحب .. أنى أحب .. وتخيلت قصة حب رومانسية قصصتها عليهم .. وتمنيت أن أعيشها مع نادية ..

— ٤ —

جدد الحب حياتى .. وامتلأت روحى بالأمل فى الزواج من نادية وقررت أن أجد الفرصة التى تقودنى إلى معرفة بيتها .. انتظرت الفرصة وأنا أخطط للزواج ، وقامت ثورة عارمة فى البيت ، فالأسرة لا تكف عن الاستيلاء عنوة على نصف مرتبى . وتكاليف الوظيفة باهظة .. فلا بد أن أدفع نقوداً للمواصلات ، ولابد أن أدفع نقوداً للكواء .. ونقوداً للبوفيه .. ونقوداً لطعام الإفطار .. ونقوداً لشراء ملابس .. فماذا يتبقى أتزوج به ؟ .. وتشاجرت معى أسرتى .. فلا زواج إلا بعد أن يتم أخى الأصغر دراسته .. ويلتحق بالعمل مثـــلى .. ثم يحل محلى .

— ٥ —

بدأت عزيمتى تفل ، وقوتى تخور .. وحبى يتأرجح .. أنا ونادية تتفق ميولنا وأهواؤنا .. أنا ونادية تآلفت روحانا .. وتفاهمت نظراتنا وبسماتنا .. عرف كل منا الآخر خير معرفة .. رغم أننا لم نلتق يوماً على انفراد .. كان كل حديث يدور بيننا ونحن جلوس فى عربة الترام .. نجول آفاق عالم الخيال بأرواحنا .. كان اللقاء حلماً عمتما أعيشه كل يوم مرتين .. مرة فى الصباح ومرة بعـــد الظهر .. كثيراً ما كنت أحلم وأنا جالس أمامها بأنى أمسك يدها ونغادر الترام

سويا ، ونستقل تاكسيا إلى مكان هادىء من الأماكن التى يرتادها العشاق .. نجلس ونتحدث بعيداً عن كل البشر .. ولكن هذا الحلم لم يتحقق أبداً .. ولو تحقق أن غادرنا ســـويا الترام فلن نستقل تاكسيا .. فالميزانية لاتحتمل ، ولن نجلس فى كازينو هادىء .. بل سنتخذ مكانا على امتداد شارع الكورنيش .. هل سيروقها أن نتبادل كلمات الحب والهيام على قارعة الطريق ؟ ..

— ٦ —

لذيذة شهية الأحلام .. مر بى الحب كحلم جميل .. أفقت منه ذات يوم أثناء عودتى من العمل .. فقد لقيتها فى الترام .. وقررت بل قررت مشاعرى أن أتبعها وأعرف عنوانها .. لم يكن الرجل الأشيب معها ولا العصا .. لكنه ترك فراغا شعرت به .. فقد كان كريما معى .. سمح لى بالتحدث مع ابنته .. والتعرف إليها .. ولم يتكلم .. بل كان دائما يدفن وجهه فى الجريدة الصباحية ويغيب عن كل ما يحيط به من عالم .. تحدثنا طويلا والترام يشق طريقه وسط زحام العربات ، والصاعد إلى الترام يشق طريقه بصعوبة وسط الركاب والنازل منه يشق طريقه إلى الباب مستخدما ذراعيه كمجدافين ، وأنا ونادية لاهيان عن كل ذلك بالنظرات والابتسامات .. وجاءت محطة نزولى ، ومدت يدها مودعة .. شعرت بالحرج .. لم أقو على

ترك يدها الممدودة دون مصافحة فصافحتها وغادرتها الترام .. ثم تمالكت بعربته الثانية ، وجاءت لحظة نزولها ورأيتها .. نزلت إلى الطوار ثم بدأت تعانى مشقة السير دون عصا .. وفهمت سر وجود العصا إلى جوارها ..

وأصابنى الذعر ، وكدت أصرخ .. يا إلهى لماذا كل هذه القسوة؟ .. أهى عقدة الذنب التى ارتكبها أبونا آدم بخروجه من الجنة نعاقب عليها جيلا بعد جيل ؟ .. يا إلهى .. منحت نادية كل مقومات الجمال وجهاً وجسداً وروحاً .. أبدعت فى صنع قوامها وفتنتها ثم تسلبها كل هذه النعم بشلل أطفال فى ساقها .. ماذا منحت إذن ؟ .. ما الحكمة فى ذلك كله؟ .. ساق جميلة ، وساق معوجة عجفاء .. منحتها الصحة ومنحتها المرض .. منحتها الجمال ومنحتها القبح ..

— ٨ —

كدت يوما أفقد إيمانى بالوجود كله .. دمعت عيناى .. وانطلقت إلى البيت كأعمى لا يرى شيئاً أمامه سوى ساق نادية المصابة بشلل الأطفال .

القسم الثاني

— ١ —

ومرة أخرى تمر السنوات .. بما فيها من شهور وأسابيع وأيام، ومافيها من ساعات ودقائق وثوان .. شهيق وزفير .. وأنا أعاتب نفسى باحتقارها .. أجل .. أحتقر نفسى لأنى هربت من نادية .. هربت من حبها .. خرجت فجأة من حياتها .. ترى بماذا شعرت بعد تخلفى عن لقائها .. لاشك أنها تألمت .. تألمت ألماً فظيعاً .. وعانت معاناة صعبة شديدة ، وربما تكون قد تخلصت من حياتها .. فكرت فيما فكرت أنا فيه مراراً .. آن الأوان كى تستريح نبضات قلبى .. قلبى المتعب .. وروحى المثقلة بالهموم .. المملوءة بالخدوش .. وحياتى التى لاطعم لها ولا لون ..

— ٢ —

كانت نادية حبى الأول .. وكانت عائشة حبى الأخير .. أجل .. فقد تحاببنا وعزمنا على الزواج .. كان كل منا يبغى الخلاص من حياته بأى شكل من الأشكال .. أنا أبغى الفرار من قيود أسرتى .. وهى

تبغى الفرار من زوجة أبيها .. لم يعد لأحد منا مكان فى بيت أسرته ..
بلغت الثلاثين من عمرى .. ومللت كل شيء .. البيت والعمل والزملاء
والأصدقاء . ووجدت فى حبى لعائشة ملاذى الوحيد ، وهى مثلى ..
ملت من الدراسة وتوقفت بعد حصولها على الإعدادية .. وملت بيت
أبيها .. فقدقهرت زوجته كل ما فى نفسها من شباب وحيوية ، وأحلام
وآمال .. حطمت فيها كل شيء ماعداها العاطفة العذرية الرقيقة ..
فلم تقو على تحطيمها وكانت عائشة تلوذ بى باكية ، وتقول من خلال
دموعها المنسابة فوق وجنتيها :

— تزوج بى .. لا أريد بيتاً بل حجرة واحدة تكفى .. خذنى
بملابسى هذه ولا تعدنى إلى بيت أبى .. تعبت جداً ..

ومع ذلك وقفت بيننا أشياء كثيرة .. المال اللازم للزواج ..
كل شيء صعب المنال .. الأثاث .. الشقة .. مئات الجنيهات ..
ومن أين لى مائة واحدة منها ؟ .. حاولت الادخار .. فادخرت مبلغاً
صغيراً لا يكاد يكفى خلواً لشقة صغيرة تضمنا .. وضاقت الدنيا فى
وجهينا .. وبرزت المعاناة كأنياب وحش مفترس .. المعاناة فى
الطفولة ، وفى الصبا ، وفى الشباب ، وفى كل الحياة بطولها وعرضها ..
وإلى متى هذه المعاناة ؟ .. لم إذن الحياة ؟ .. لم إذن الذل والمهانة ؟ ..
فلتنزع هذه الحياة المزة الألية ، ولتذهب هذه الروح إلى الشيطان

مشحنة بجراحها . كنا نبكى أنفسنا فى كل لقاء من لقاءاتنا الأخيرة حتى فوجئت بها ذات مساء تطلب لقائى .. ولقيتها .. كانت أجمل من كل مرة رأيتها فيها .. كانت حنونة رقيقة .. رأيت فى عينيها كل شيء .. الحنان ، الحب . الدفء . الوفاء . الإخلاص . الأمان . كل الأمل فى الحياة . كل النجاح . رأيت فى عينيها الإلحاح . بل الموت فى الحب . كان هناك شبح يتراقص شممت رائحته ولم أستطع التمكن، به .. شيء — ما — له رائحة وبلاطعم .. خلعت من أصبعها خاتما من الفضة كنت أهديته لها .. وقدمته لى وقبلت أصابعى .. ثم عانقتنى بكل فرح فسألتها :

— تبكين وأنت معى ؟

— أبكى لأنى معك .. أشعر بفرح يغمر كيانى كله .. سرور لا أدرى منبعه ..

كنت يومها كالأبله فلم أدرك أنها تودع الحياة .. وتودعنى كجزء من حياتها .. ودعتها وأنا مصمم على الحياه بأى ثمن .. بلاشرف .. سأسرق .. أجل .. سأسرق وأتزوج من عائشة .. كفانا من حياتنا الماضى .. كفانا من المعاناة ماقاسيناه ..

وأنا فى دوامة تفكيرى الآثم جاءنى نبأ انتحارها .. عانيت

ماعانيت .. وخرجت عن طوري فلعنت كل شيء .. وقررت اللحاق بها .. وثارت ثائرتي ، واسودت الدنيا في عيني .. ولكني في النهاية جبنت عن اللحاق بها .. جبنت عن تنفيذ قراري .. وتراجعت أحمل نفسي مزيداً من الاحتقار .. أليست هذه النفس تستحق الازدراء .. والاحتقار ..

لماذا أجبن ؟ .. جبنت وفررت من نادية .. وجبنت ولم ألحق بعائشة .. كما جبنت عند تغيير حياتي في مبدأ التحاقي بالعمل .. وماذا يفيدني احتقاري لنفسي ؟ .. هل سأظل إلى الأبد أعاني من احتقاري لنفسي؟ .. أهو قدر مكتوب ؟.. أنها المعركة الفاصلة الآن .. اما أن أقضي على احتقاري لنفسي واما أن يقضي هو علي .. أمامي فرصة البدء من جديد . عمل آخر .. طريق آخر .. مواصلات أخرى .. زملاء آخرون .. حياة جديدة في مكان آخر .. بعيداً عن أسرتي .. بعيداً عن الملل والكآبة .. بعيداً عن ذكرياتي .. وتنكرت أسرتي لتضحياتي ، وطردتني شر طرده ..

— ٣ —

كان علي أن أعول نفسي .. وها أناذا أتقدم صوب مكتب يقبع خلفه موظف من موظفي الدولة .. كان الطابور طويلا وكنت في آخره .. ها أنا ذا أتقدم صوب الموظف لأحصل على تأشيرة الخروج .. آسف .. ها أنا أستلم تذكرة السفر .. كلا لأوقع قسيمة زواج .. كلا .. لا هذا

ولاذاك .. بل لأشترى ولأول مرة فى حياتى كيلو سكر وباكوشاى من الجمعية الاستهلاكية .. وحصلت على ما أريد بعد وقت دام أكثر من ثلاث ساعات ، وتنفست الصعداء .. خرجت إلى الطريق عائدا إلى حجرتى التى اتخذتها سكنا لى وأنا أنظر إلى مشترياتى وأضحك ساخراً من نفسى .. هازئاً بشخصيتى .. وعاودنى الاحتقار .. سكر وشاى هما ماخرجت به من كل تجاربى ومن كل حياتى .. وامتلكنى الشرود .. وخطواتى تتخبط هنا وهناك .. التزم السير فوق الطوار .. ثارت نفسى .. طيلة حياتى وأنا التزم السـير فوق الطوار والشارع على سعته أمامى .. وتنتقل خطواتى إلى وسط الشارع .. جميل صياح السيارات ورائى .. رائع تفاديهـا الاصطدام بى .. سأخرج سالماً فى النهاية .. فلا يريد أحد منهم مصيبة تقع فوق كاهله تعطله وتجره إلى النيابة ، وقد يحكم عليه بالسجن .. مسرور جداً أنا والأبواق تطاردنى .. وأنا فى كامل النشوة بانتصارى على جبنى وتغلبى على احتقارى لنفسى .. لاتهمنى السيارات ولايهمنى الموت إذا أمسك بناصيتى .. ولايهمنى شىء فى الوجود سوى الانتصار اللذيذ ..

وكأن عاصفة هوجاء هبت فاقتلعت الأشجار الراسخة من الأرض ، وأطاحت بكل شىء ، واقتلعتنى العاصفة فيما اقتلعت .. طرت عدة أمتار وسقطت سقطة عنيفة .. اهتزت الأرض تحت ثقل

جسدى .. وتبعثرت مشـــترياتى .. السكر يحيط بى منثورا فوق الأرض .. وباكو الشاى اختفى لعل ذراعاً طويلة فيها يد ماهرة التقطته .. وتطلعت حولى فوجدتنى أشعر براحة غامرة .. شعرت بجسدى المنهوك وقد استراح .. أسندت رأسى إلى الأرض وضاعت معالم كل شيء ..

يبدو أننى أفقت من إغمائى سريعاً .. تطلعت إلى الوجوه المحيطة بى ، ويبدو أننى ابتسمت إذ قال أحدهم لامرأة لم أرها ، إذ كانوا يحجبونها عنى :

— الحمد لله سليمة .. أنه بخير .. لاتنزعجى ياسيدتى ..

وانفرج جمعهم عن امرأة .. هالنى مرآها .. وعقدت الدهشة لسانى .. التف حول أحبالى الصوتية جنزير من الحديد قيد اهتزازها اللحظة .. تطلعت هى الأخرى .. وأخفت وجهها بين كفيهـــا صارخة :

— يا إلهى ..

وبعد برهة تحرك لسانى .. وانفرجت شفتى عن اسمها :

— نادية .. نادية ..

تمالكت نفسها .. وأرخت ذراعيها إلى جوارها .. تطلعت إلى عينيها فلم أجد أثرا للدمع .. وكأن عينيها امتصتا الدموع ثانيــة وقالت متأنية :

— مدام نادية من فضلك ..

— آسف .. ظننتك ...

ولم أتم كلماتى .. غضضت عينى عن التطلع إليها .. وقد تقدم الرجل الأشيب وأمسك بذراعيها قائلا فى لهفة :

— ماذا حدث .. ؟ هل جاءت الإسعاف ؟ ..

رفعت ساعدى ليساعدنى أحد المتجمهرين على النهوض فــلم أقو على الوقوف .. وتدلت ساقى المكسورة كما يتدلى غصن شجرة مكسور ..

طلبت منها أن تستقل سيارتها وتدعنى .. وطلبت تاكسياً ليقلنى إلى المستشفى لأضع ساقى المكسورة فى الجبس .. وانصرفت نادية بعد أن دست فى جيبى عنوة مبلغاً من المال ثمناً لإصابتى .. واستقلت سيارتها وقد استوى زوجها أو والدها خلف عجلة

القيادة .. أنا الذى طلبت منهما الانصراف .. ومرة أخرى يانادية .. مرة أخرى تعودين بى إلى الاحتقار الذى سيلازمنى إلى آخر أنفاسى .. لقد أسأت إليك ، ورد القدر إلى إساءتى .. عين بعين وسن بسن .. والبادىء أظلم .. وليذهب كل شىء إلى جهنم كلا .. ليذهب كل شىء إلى المستشفى ..

لا مبالاة

« روى الأتوبيس ظمأه ، وألسنة الركاب
تطل من أفواههم شوقاً الى نقطة ماء
تروى الظمأ . . بللت شفتى بلسانى ضمن
من بللوا شفاههم . . »

تمر اللحظات على الإنسان مروراً عابراً .. ولا يعرف أى إنسان قيمة اللحظة إلا إذا كان بها شذوذ على لحظة سابقة أو لحظة لاحقة .. قد تكون لحظة فرح ، أو لحظة حزن ، هى لحظة من اللحظات الكثيرة التى أجد نفسى فيها متوتراً .. عصبى المزاج .. مدفوعاً إلى فعـــل شىء .. أى شىء .. كنت فى لحظة منها منتفخاً بالغضب والثورة كبالون يوشك من شدة ضغط الهواء داخله على الانفجار .. وكم من اللحظات العصبية انتفخت فيها كالبالون ونغزنى دبوس صغير !! سرعان ما يتسرب الهواء ولا يحدث الانفجار ..

كانت الساعة الثانية والربع ظهراً .. الشمس متعامدة تتوسط السماء ككرة من اللهب تشع ناراً موقدة .. ترسل سياطاً ملتهبة إلى الأرض .. أشعر بها تحرقنى .. أفر إلى ظلال الأبنية التى أسير إلى جانبها مسرعاً إلى محطة الأتوبيس .. المحطة مزدحمة — كالعادة — فقد انتهت مواعيد الأعمال دفعة واحدة .. وخرج آلاف العاملين، واندفعوا فى أمواج بشرية هائلة إلى الأتوبيسات .. أجفف عرقاً غزيراً طرده بدنى بيد ، وباليد الأخرى أحمل حقيبتى .. الأمواج البشرية تندفع فى حركتها التموجية .. جزر ومد كلما دخل المحطة أتوبيس ..

قفزت إلى داخل الأتوبيس ضمن من قفزوا متوقعا لحظة السقوط تحت أرجل المزدحمين أو تحت عجلاته .. نفس اللحظة التي أتعرض لها كل يوم في الذهاب والأوبة ، ويتعرض لها الآلاف من الناس مثلي .. الأتوبيس ككتلة صماء لا يوجد بها ثقب واحد يسمح للهواء بالنفاذ إلى الأنوف المتشعلقة نحو السقف .. ركاب اتخذوا نوافذه أماكن لجلوسهم .. تكدسوا فوق بعضهم البعض .. أسمع ويسمع معي الجميع ضربات راكبي السقف بأرجلهم وأيديهم وصراخهم للسائق ليتحرك .. فلم يعد بالأتوبيس موضع لطرف حذاء داخله أو على الأبواب ، أو على النوافذ ، أو فوق السطح .. أوقف السائق دوران المحرك ، وغادر مقعده ملقيا بنفسه من النافذة المجاورة له إلى أرض المحطة ، جذب خرطوما يتصل بحنفية أعدت لسد غور الأتوبيسات المعطشى بالماء البارد .. لتخف حدة سخونة المحرك ، وحتى لا يحترق فيصيب الدولة بخسارة فادحة .. روى الأتوبيس ظمأه وألسنة الركاب تطل من أفواههم شوقا إلى قطرة ماء تروى الظمأ .. بللت شفتي بلساني ضمن من بللوا شفاههم .. ورأيت السائق وهو يقفز عائدا إلى مقعده .. أخذ يحاول إدارة المحرك من جديد لكنه أبى أن يدور .. وفشلت كل المحاولات لإدارته .. امتلأت صدور الركاب بالغضب .. غضب على الجو الحارق الخانق .. غضب على الشمس المتعامدة بلا رحمة .. غضب على مرفق النقل العام .. غضب على أصحاب السيارات الملاكى ،

وهى تمخر عباب شوارع المدينة المزدحمة فارغة .. غضب على كبار المسئولين ، واجتاحتهم جميعا الثورة على السائق وهو يطلب منهم بصوت آمر أن يدفعوا الأتوبيس قائلا فى سخرية :

— زقة يا افندية .. زقة ياهوات ..

همس أحد الركاب قائلا :

— قل ياحيوانات .. لا تخف غضب أحد فالواقع يفرض نفسه ..

وتصايح بعض الأفندية والبهوات فى أصوات متباينة تلومه على إيقاف دوران المحرك :

— لماذا أوقفت دورانه .. انك سائق ابن ... ، وابن ...

وانهالوا عليه بالشتم والسب وصب اللعنات على أم رأسه .. ، وعلى ... ، وعلى ... ، وعلى ... ، وعلى ... ، وعلى ... ، وعلى كل شىء يخطر ببالهم فى لحظاتهم هذه ، وأزمتهم تلك ..

وفرت على نفسى ألم الصراخ ، ووفرت على نفسى التفوه ببعض ما تفوهوا به جميعا .. فالغالبية تتطلع إلى الأوبة لبيوتها بأى مقابل .. التنازل .. وما أكثر التنازلات كل يوم ، أنا أيضا أتنازل عن بعض ذاتى معظم الأحيان .. حينما أتعلق بباب الأتوبيس محملا طرف حذائى

المسكين ثقل جسدى الهائل متأرجحا بين الحياة والموت ، وأدفع ثمن ذلك ، وتتعلق التذكرة بين شفتى ، وحينما أقف فى طابور الجمعية الاستهلاكية لأشترى لوازم بيتى أشتم ويلعن أبى وأمى وجدى ، وأدفع ثمن لوازمى ، وحينما أقف أمام شباك تذاكر السينما أتشاجر ، وأتضارب وأدفع ثمن رفاهيتى ، وحينما أقف فى إدارة مرفق عام كادارة الكهرباء ، أو إدارة المياه ، أو إدارة النقل العام .. أدفع وأتنازل عن بعض ذاتى ، وأتمرض لما يفقدنى انسانيتى ويصيبنى بالغثيان من تعقد الحياة مع تقدم الزمن ..

قلت بصوت خفيض يشبه الهمس :

— سائق لا يبالى كغيره من ...

قاطعنى راكب بجوارى :

— أصبحت اللا مبالاة عدوى كالسرطان تنتشر بسرعة هذه الأيام ..

رددت عليه قائلا فى أسى :

— أظنه لن يتحرك بعد كل هذه الشتائم ..

عاود السائق القفز من النافذة وهبط إلى أرض المحطة كالشمبانزى

فى حديقة الحيوانات ، ضرب بعنف على جدار الأتوبيس قائلا بلا أدنى مبالاة ، وكأن همسى وصل أسماعه :

— خذوا أتوبيسا آخر ياأفندية .. الأتوبيس معطل وسأذهب به للجراج ..

ثم اتجه إلى حجرة الناظر الصغيرة ، وجذب مقعداً جلس فوقه سلطان زمانه ، وكل الأفندية والهوات عبيد فى سلطنته ..

مرة أخرى يتصاعد الغضب إلى قمة رأسى ، وفى رأسى يدور أكثر من صراخ .. أتفرس وجوه الركاب هامسا لنفسى « ما ذنب كل هؤلاء ؟ » ، وأعود وأؤنب نفسى إذ أننا جميعا فى الهم سواء .. اعتدنا مثل هذه الأمور الخاطئة .. كلنا لا نبالى وينتفخ بالونى ويوشك على الانفجار .. يركلنى أحدهم فى ساقى فالتفت إليه والشرر يخرج من عينى فيتأسف فى برود ، ويدفعنى آخر بكتفيه محاولا المرور لمغادرة الأتوبيس ، وأكاد أصرخ فيهم جميعا لوما لهم على لا مبالاتهم وخضوعهم للامبالاة السائق ، وناظره الجالس كأن الأمر لا يعنيه البتة وقد نزل معظم الركاب بالفعل ، والصرخة بين شفتى هى نفس اللحظة التى أوشكت فيها على الانفجار نغزنى دبوس رقيق صغير .. مدت امرأة جالسة يدها وتناولت حقيبتى .. تركت لها الحقيبة عن طيب خاطر .. متطلعا إلى وجهها الفنان الضاحك .. متفرسا فى تقاطيعه

المنسقة فى إبداع .. المنسجمة كأحسن ما يكون الانسجام .. محدقة فى عينيها الزرقاوين ، وتسرب كل الغضب من بالونى المنتفخ .. وهدأت تماما وقد تعلق ذهنى بجمالها ، وانجذب انتباهى لفتنتها .. وأنا أشهد فوق وجهها إرهاقا جميلا ، واحمرارا لطيفا يمتلى وجنتها .. قلت فى نفسى بلا أدنى مبالاة بالأوبة إلى البيت « ليتحرك الأتوبيس أو لا يتحرك .. اننى .. اننى باق .. يكفى أن أمتع نفسى بهـــذه الفتنة ... » ..

ذكرتنى فجأة معدتى الخاوية بموعد الغداء ، وقد فات منذ أكثر من ساعة .. فجأة خطفت حقيبتى ملقيا عليها كلمة شـكر سريعة .. وهرولت مغادراً الأتوبيس المعطل إلى أتوبيس سياحى دخل المحطة يقربنى من بيتى ، وفى نيتى أن أتنازل وأمشى بقية الطريق سـيراً على الأقدام حتى البيت .. كان ذلك أفضـل من تلك الركنة المقيتة تحت رحمة سائق لا يبالى ، وناظر محطة أكثر منه لا مبالاة . .

كانت فعلا تفاحة

« طالما أنا على قيد الحياة لا تفكرى أبدا
فى أى عمل يمتهن كرامتك .. اننى لم أمت
بعد يا صفية .. ثم من يرعى الأولاد انهم
محتاجون إليك »

كانت صفية جالسة أمام بضاعتها ... لا تدرى سببا واحداً لسيطرة الذكريات الحلوة على مخيلتها.. وسط الحارة يلعب أطفالها، وطفل رضيع يرقد فى حجرها ترضعه .. النوم يداعب أجفانها .. أسندت رأسها على راحة يدها مرتكزة بكوعها فوق فخذها الأيمن وراحت فى شبه اغفاءة ..

هزها أحد أكبر أبنائها الذكور وهو فى حوالى العاشرة من عمره صائحاً فى سرور :

— أمى .. أمى .. وجدت تفاحة ..

بحلقت الأم فى يده، وانتفضت مذعورة :

— ولد .. أرم .. أرم يا ولد ..

— تفاحة يا أمى ..

نادت صفية ابنتها رضا وهى كبرى بناتها والبالغة من العمر أربعة عشر عاما تقريباً، وقد نضج فى جسدها الشباب، وارتسمت على محياها علامات المراهقة، وبرز صدرها .. تفحصتها الأم لحظة وغمغمت لنفسها :

— « والله والبنت كبرت، وصارت عروس .. » ..

ثم ارتفع صوتها آمرة إياها :

— خذيها منه وألق بها بعيدا .. أين وجدها ؟

صاح أحمد وهو يجرى بعيدا عن أخته فرحا بالتفاحة فى قبضة يده :

— وجدتها تحت السرير ..

تذكرت صفية .. كانت فعلا تفاحة .. تدحرجت تحت السرير منذ أمد بعيد ، وكانت فى ليلة أسدل بعدها الستار عن الحياة الرغدة الهنية .. تدحرجت التفاحة ولم تفكر ليلتها فى البحث عنها ، وأرجأت البحث إلى الصباح .. ثم نسيت الأمر تماما .. فقد تعاقبت الأيام سراعا .. وتحولت التفاحة إلى جمجمة إنسان مهشمة .. لونها الأحمر مختلط بالنقط السوداء .. وبها ثقوب كثيرة ، وبقع العفن قد تجمدت فوقها .. عادت رضا قائلة :

— أنه يبكى .. ولا يريد اعطاءها لى ..

— طيب .. خذى أخواتك وتناولوا الافطار ..

أخذت صفية تهش الذباب عن وجه طفلها الرضيع النائم .. والنوم يأتى بكل ثقله على جفنيها .. ألقت ببعض الماء من كوب إلى

جوارها فوق وجهها ، ولكن دون جدوى . . راحت ثانية فى طيات النعاس . .

رفعت صفية رأسها على صوت امرأة من الجيران واقفة أمامها :

— نعم نعم . .

— كيلو بطاطس يا أم أحمد . .

وضعت صفية بعض حبات البطاطس فى كفة الميزان . . وفى الأخرى سنجة زنة كيلو من الحديد . . ثم أفرغت ما فى كفة الميزان من بطاطس فى جلباب أم سعد التى انصرفت بعد أن نقدتها ثمنها . .

عادت صفية تقاوم النوم اللحوح عن جفنيها .. وقد بدا الارهاق فوقهما ثقيلا .. أخذها الذكرى هذه المرة إلى الماضى البعيد .. كانت ملقية بجسدها فوق الفراش خفيفة كالفراشة .. سعيدة مرحة .. تنتظر عودة حبيبها ، وهى ترضع حكمت آنذاك .. وكانت رضا نائمة ، وفوق شفتيها رقدت ابتسامة بريئة .. كانت الصغيرة تنتظر فى حلمها عودة فارسها هى الأخرى محملا بالفاكهة ..

رفعت رضا رأسها وتمتمت وهى تفرك عينيها :

— أين أبى ؟

ردت صفية فى إقتضاب :

— لم يعد .. تأخر الليلة كثيراً ..

عادت رضا إلى نومها ، وبقيت صفية على حالها .. تنتظر وتنتظر رفعت ذراعيها من تحت رأس حكمت ، اعتدلت جالسة في فراشها تنصت إلى دبيب الأقدام فوق أرض الحارة ، والتي سرعان ماتتلاشى وتبتعد .. ويتلاشى الأمـــل في أن تسمع دقات زوجها المعتادة على الباب . . كل حواسها متلهفة تنصت إلى السكون ، وتحاول أن تجعله ينطق بما تريد . . يطمئنها على زوجها وحبيبها . . قلبها يدق في عنف جعل قميصها الخفيف يرتعش ارتعاشة خفيفة تشبه ارتعاش الأجفان . .

انتصف الليـل أو كاد .. تململت حكمت في رقدتها ، وارتفع صوت بكائها .. مالت صفية عليها ، وأخـذت تربت فوق صدرها ربتات خفيفة .. لـكن الصغيرة لم تسكت ، وأخذت ترفس الهواء بقدميها الصغيرتين .. أخرجت الأم ثديها مرة ثانية وأحكمت وضعه في فم الصغيرة الجائعة .. فعاودها الاطمئنان ، وأخذت تضغط عليه بأسنانها اللبنية الحنون . .

غفت صـفية وهي مرتكزة بكوعها على الوسـادة ثم انتفضت مذعورة فقد جثم فوق صدرها كابوس مقيت .. فقد تراءى لها علام مصاباً في حادث .. بسملت ونفخت في صدرها متمتمة :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. يارب سلم . .

تلفتت حولها ، وشملت الحجرة كلها بنظرة واحدة .. كانت تبدو أمامها خاوية . . ثم قامت .. وكانت طرقات علام الخفيفة المتوالية على الباب ..

تدلت من فوق السرير . . لملمت قميص نومها ، ولملمت شعرها بغطاء الرأس ثم فتحت الباب .. دخل علام .. حياها تحية مقتضبة .. عادت وراءه قائلة فى رنة عتاب :

ــ ماذا أخرك ؟.. كنت قلقة عليك . .

نظر إليها علام ولم يجب .. انصرفت إلى إعداد الطعام .. التفتت إليه وهى تغرف الطعام فى الأطباق . . سقطت عيناها على وجهه الجامد الحزين . . ورأت علامات الحزن متمثلة فى دمعتين عالقتين تتهاديان فى بطء .. سألته وقد توجست خيفة :

ــ علام .. ماذا بك ؟.. أحدث لك مكروه ؟..

ــ لا . .

لمح الحيرة التى شملتها فأردف قائلا :

ــ تركت العمل فى المحل .

أسندت صفية ظهرها إلى الحائط .. شعرت بألم فى صدرها . .

وكأن سكيناً قد شطرته إلى نصفين . . أو منجلا اجتث كل ما فى قلبها من أمان واطمئنان وسعادة وهناء .. قالت فى صوت خفيض تمنت لو لم يسمعه :

— لم فعلت ذلك ..

كانت كلماتها إيذاناً بغضبة من علام .. فصاح متضايقاً :

— لأنه رجل استغلالى جبان . . قلبه مملوء بالجشع . . يريد تخفيض أجرى ريالا .. ألا يكفيه أنى أعمل أكثر من عشر ساعات فى اليوم كأنى ثور يدور فى ساقية ..

قالت وهى تضع الطعام أمامه :

— لقمة العيش مرة يا علام ..

قال محاولا تهدئة نفسه :

أنا أعرف ذلك . . لم أقل شيئاً . . لكن الله لا يرضى هذا . . ولا ترضاه أى نفس حرة .. إنه استعباد ..

تمتمت صفية :

— الله . .

ثم أردفت فى استكانة واستسلام لمصير مجهول وخشوع :

ــ الله لا يعرفه سوانا نحن الفقراء .. لا تبتئس .. لن ينسانا الله ..

أخذ علام ينظر إلى زوجته وقد اكتسى وجهها الأبيض بسحابة من الحمرة القاتمة الحزينة ، وبدت له عيناها مملوءتين باللوم والعتاب .. منذ تزوجا وهما ينعمان بحياة هنية رغـــدة .. أنجبا خلالها رضا ، وحكمت كان كل ما يهتم به هو إسعاد زوجته وابنتيه ، وأن يصونهما من تقلبات الدهر والأيام .. كان حب زوجته يدفعه دوماً إلى الاهتمام بعمله والتفانى فيه .. كان مجهداً متعباً .. والتفـكير يزيده إجهاداً وتعباً .. فنظر إلى إبنته رضا النائمة فى محاولة للانصراف بعقله عن التفـكير فيما حدث .. قال :

ــ صحى رضا .. اشتريت لها تفاحاً ..

ــ دعها نائمة ..

هم علام نصف واقف مرتكزاً على ركبته اليمنى ، وهز رضا :

ــ رضا .. رضا .. قومى يا حبيبتى ..

نهضت رضا . تقلبت فوق الفراش حتى حافته ثم ألقت بنفسها

بين ذراعى أبيها الممدودتين لها . . قبلها وأجلسها فوق فخذه . . قدم لها تفاحة قائلا :

— كلى يا رضا . . كلى يا حبيبتى . .

انصرف علام إلى مداعبة رضا ، ومداعبة نعاسها . . أخذ يقطع بأسنانه من التفاحة قطعاً صغيرة ويدسها لها فى فمها . . وكانت رضا تحتضن فى صدرها تفاحتين اهتزت ضاحكة عندما داعبها أبوها بأصابعه تحت أبطها . . فتدحرجت إحدى التفاحتين واختفت تحت السرير . . طلب علام من زوجته إحضارها فأرجأت ذلك إلى الصباح . . لم تكن صفية ترغب فى عمل أى شىء سوى التفكير فى الغد وما يكتنفه من ظلام . . كانت تلوك الطعام فى فمها صامتة شاردة ، وقد فقدت شهيتها له . . أخذت تجوس بذهنها خلال السنوات الماضية السعيدة التى عاشتها ، والحياة الهادئة التى نعمت بها ، ولم يكن يخطر ببالها قط أن هذه السعادة يمكن أن تضيع . .

أخرجها علام من شرودها وهو يمد إليها يده بثلاثة جنيهات قائلا :

— صرفى أمور البيت بهذا المبلغ حتى أجد عملا . .

وتوالت الأيام . . ثم الشهور . . وعلام لا يألو جهداً فى البحث

عن عمل ، وذات صباح توقف قرب الباب لحظة ، ودارت فى ذهنه الأيام التى قضاها يبحث عن عمل دون جدوى .. الأبواب كلها تكاد تكون مغلقة فى وجهه . . أشار عليه أحد أقاربه بأن يقدم طلباً إلى مصلحة البلدية . . وقدم الطلب وفى انتظار العمل . . برقت فى ذهنه فكرة فعاد إلى زوجه مسرعاً . . أمسك بها من ذراعها قائلا فى سرور :

— وجدت عملا . . وجدت عملا يا صفية . . سأشتغل حمالا فى سوق الخضر . . أحمــــل الأقفاص إلى خارج السوق حتى محطة الترام بقرشين أو ثلاثة قروش . . يا فرج الله . .

ودعته صفية متطلعة إلى السماء داعية له بالتوفيق . .

اعتاد علام أن يعود ظهراً بعد أن تخف حدة العمل فى السوق .. يجلس إلى زوجته ملقياً برأسه فوق فخذيها .. يقص عليها عمل يومه.. وهى تدلك له كتفيه المتورمتين :

— لو عملت ساعة أخرى لحصلت على عشرين قرشاً أخرى . . لكنى تعبت . .

كانت صـفية تدرك مدى الإرهاق الذى يعانيـه زوجها فى عمله الجديد . . وقد زادت الأعباء وزاد أطفالها طفلين آخرين . .

فكرت كثيراً فى مساعدته .. ولكن ما الوسيلة ؟.. وكيف تحصل على عمل ؟ اقترحت أكثر من مرة أن تعمل كخادمة أو غسالة أو تمتهن التمريض فى أحد المستشفيات .. لكنه رفض بشدة قائلا :

ـ طالما أنا على قيد الحياة لا تفكرى أبداً فى أى عمل يمتهن كرامتك .. إننى لم أمت بعد يا صفية .. ثم من يرعى الأولاد .. إنهم محتاجون إليك ..

لكن كيف لها أن تجلس وما يكسبه زوجها لا يكاد يكفى القوت الضرورى .. برقت فى ذهنها فكرة .. لماذا لا تذهب مع زوجها صباحاً إلى السوق ، وتشترى بعض الخضر وتعود لتبيعها لسكان الحارة .. واستحسنت الفكرة ، وعرضتها عليه .. وافق متضايقاً متبرماً .. وسرعان ما وضعت الفكرة موضع التنفيذ .. كانت تترك أولادها فى رعاية أختهم الكبرى رضا .. وتخرج مع زوجها مع تباشير الصباح إلى السوق .. يشترى لها الخضروات ، تحملها فوق رأسها عائدة إلى حيث تفترشها فوق بعض الأقفاص أمام البيت ، تلتف حولها النسوة مشتريات ..

ذات صباح عادت صفية من السوق .. وقفت أمام البيت محدقة فى ذهول .. تنظر إلى جارتها أم خليل ، وكانت تجلس أمام بيتها

تفترش بعض الأقفاص وفوقها بعض الخضروات .. طفرت الدموع من عيني صفية وهي تتمتم لنفسها :

— لماذا يا أم خليل تعرضين نفسك لهذه المهانة !!

لم تكن أم خليل في حاجة إلى احتراف هذا العمل .. فلديها منزل يدر عليها مبلغاً محترماً .. وليس لديها أولاد .. لكنه الجشع واكتناز المال ..

عاد علام يزف إليها بشرى .. هونت عليها كل ما اعتمل في قلبها من أحزان بسبب مشاركة أم خليل لها في رزقها ورزق أولادها.. قال علام :

— لا تهتمي .. سأذهب غداً للكشف الطبي.. وبعدها ألتحق بالعمل ..

انبسطت أسارير صفية ، وتورد وجهها بالدم .. فبدت كما كانت في سالف عهدها جميلة .. رقيقة .. قالت وشفتاها تفتران عن بسمة نابعة من قلبها :

— صحيح يا علام .. ربنا يوفقك ..

— صحيح يا صفية .. غداً تعودين إلى بيتك وتعيشين معززة مكرمة ..

— طالما أنت معى فأنا معززة مكرمة . . ليس لى فى الدنيا غيرك . .

كانت فرحتها بقرب عثـــورها على السعادة والهناء تفوق فرحة ابنها بالتفاحة التى عثر عليها . . ولم تدم هذه الفرحة كثيراً إذ بعدها بأيام بدت أعراض الاعتلال والمرض تبدو على زوجها . . انقبض قلبها . . وانطفأت الشمعة التى أضاءت فى نفسها ، وعادت إلى حزنها وشرودها . . وقد بدت لها الحياة تسير بها من سوء إلى أسوأ . . فزوجها يعمل يوماً ويرقد متعباً أيام . . والوظيفة تبدو بعيدة كحلم لن يتحقق أبداً . .

خرج علام فى الصباح ذاهباً إلى مصلحة البلدية للسؤال عن مصير الوظيفة ، وتركها تطحن الهم والحزن بين ضروسها . .

أفاقت صفية من غفواتها على صوت بكاء إبنها أحمد بعد أن ضربته رضا . . قالت يائسة :

— ماذا حدث لأخيك ؟

— أخذت منه التفاحة وألقيتها بعـــيداً فشتمنى وضربنى فضربته . .

— دعيها له . .

شردت وهي مفتوحة العينين ، وترامت لها السنوات وكأنها دهور ، وعلام يكد ويكدح . . يتعافى ويمرض . . وقد زاد عدد الأسرة ثلاثة أفواه أخرى تطلب الطعام . . والغذاء والملبس والمأوى . . وكان دخل الأسرة قليلا . . يكاد بالكاد يكفي ضروريات الحياة من طعام ومأوى . . وبدا الفقر ينشب أظافره اللعينة في صدر الأب . . كانت أفواه أبنائه تدفعه إلى مقاومة المرض . . وتحديه . . والعمل الدائب المستمر . .

نظرت صفية إلى آخر الحارة . . شمدت قامة زوجها المديدة أبصارها . . وقد دخل إلى الحارة . . يمشي خطوات بطيئة . . وقد بدا لها متهالكا ، وكأنه يحمل أثقالا فوق كتفيه . . شعرت بانقباض قلبها فبسملت وتوسلت إلى السماء ببعض الدعاء ...

جلس علام إلى جوارها ، وسقطت دموعه رغماً عنه . . خمنت صفية بضياع الوظيفة في المصلحة . . أخذت تهون عليه الأمر :

— لا تهتم بشيء . . سنبحث عن عمل آخر في مصلحة أخرى . . ها نحن نعيش والحمد لله يا علام . . الخير كثير . .

أخذ علام يجول بنظراته في وجهها . . وفي رأسه تدور الأفكار السوداء كلها . . الموت يتربص في صدره ، ويهدد ذلك الوجه الرقيق ، وهذه النفس الطيبة الخيرة . .

قال فى نفسه وكأنه يسألها :

— كيف تعيشين من بعدى ؟..

وأجهش بالبكاء . . فانتابته نوبة حادة من السعال ظل يسعل حتى اندفع الدم من فمه . . صرخت صفية وهى تخفى رأسه فى صدرها مستغيثة بالجيران .. وأولادها حولها يبكون ..

عصفور على نافذتي

« إذا كنتم أغنياء تحسدون الفقراء على فقرهم رغم معرفتكم بتبعات الفقر ورذائله ، وإذا كنتم أقوياء تحسدون الضعفاء على ضعفهم رغم ..... »

وجاء ليل كان أعجوبة .. ليـــل صائف فى قلب الشتاء .. كان النهار بارداً والسحب فى السماء تنذر بهطول أمطار غزيرة .. ثم راقت السماء فجأة وشاع الدفء فى الهواء ..

كانت ليلة من الليالى التى تجمع بين جو الربيع المدبر والصيف المقبل .. تخلصت من ملابسى الواقية من البرد والمطر وجلست داخل حجرتى فوق فراشى ، وضوء القمر الفضى يسقط فوق جسدى فأحال لونه الأسمر إلى لون الفضة ..

قلت فى نفسى « حرام والله أن ينام الناس فى هـذا الليل الجميل حرام قضاؤه بين جدران المنازل فضلا عن قضائه فى الفراش .. تمنيت لو أترك البيت لكن الوقت متأخر وغير مناسب .. لبثت قابعاً فى مكانى ما يزيد عن الساعتين وفجأة شد انتباهى هبوط عصفور على إفريز النافذة .. وقف برهة يتلفت برأســـه الصغير يمنة ويسرة .. ينظر هنا وهناك فحبست أنفاسى حتى لا يخاف ويهرب .. تأملته ملياً وقد حل ضيفاً يؤنس وحدتى .. طال صمتى وطال وقوفه ..

انتابتنى الحيرة فى أمره .. فالعصافير تسكن عشاشها مع الغروب ولا تطير ليلا .. وكأنه أدرك ما يجول بخاطرى فهز رأسه فى بطء وقال :

— أعرف سر دهشتك .. لقـــد أعجبنى مثلك الليل الدافىء فتركت عشى لأمتع روحى بهذا الليل الجميل ..

ومرت فترة صمت .. قطعها العصفور قائلا :

— لمـاذا تنظر إلى هكذا ؟ ..

قلت مبتسما :

— هكذا .. إنى أحسدك على ما تتمتع به من حرية ..

قال العصفور :

— ها أنتم يا أبنـاء آدم .. إذا كنتم أغنياء تحسدون الفقراء على فقرهم ، رغم معرفتكم بتبعات الفقر ورذائله .. وإذا كنتم أقوياء تحسدون الضعفاء على ضعفهم رغم علمكم بما وراء الضعف من ويلات ونكبات .. إذا . . . . .

قلت مقاطعاً :

— مهلا ياصديق .. يبدو أنك قد فهمتنى خطأ .. لقد تركت عشك لتمتع نفسك بهذا الليل الجميـــل .. وقبل قليل كنت أتمنى أن أترك البيت وأخرج للمتعة مثلك .. لكن الناس كما ترى نيام .. وسوف لا أجد مكاناً أقضى فيه هذا الليل البهيج .. لو كنت مكانك لمـا وقفت هكذا ..

أجابنى العصفور وهو يضع رأسه الصغير تحت جناحه مستغرقاً فى الضحك :

ــ كأنى الآن مجنون فى دنيا العصافير ..

ثم عاد ورفع رأسه من تحت جناحه وقال :

ــ هل تريد أن تكون مجنوناً فى عالم البشر ؟

قلت :

ــ أجل .. أريد أن أكون حراً ولكن كيف ؟

ــ ما رأيك لو تبادلنا كينونتنا .. تخيل عقلك الكبير فى جسدى الصغير وعقلى الصغير فى جسدك الضخم ..

ضربت جبهتى بيدى صائحاً :

ــ ويحك .. غير معقول .. هل يمكن أن يكون هناك تواؤم بين العقل والجسد ..

قال العصفور :

ــ ألا تريد الحرية ؟ الحرية فكرة فى العقل .. سأمنح عقلك الحرية .. ان ثمن الحرية باهظ التكاليف .. وكثيراً ما يكلف الإنسان أحد اثنين .. جسده أو عقله ..

فكرت ملياً فيما قاله العصفور وقلت :

— وكيف ذلك ؟

قال العصفور :

— عندما يكون الجسد ثمناً للحرية فإنه يسجن ويجلد ويتحمل ما لا طاقة له به من ألوان التعـذيب .. قد يشوه وقد تموت خلاياه الحية ، وقد يدفن حياً ويأكله الدود ، وعندما يكون العقل ثمناً للحرية فإنه يجن ، وأنا أختار لك الحرية دون ثمن .. هيا نتبادل كينونتنا وتتمتع بحريتك ..

راقت لى الفكرة ، وسرعان ما تمت بيننا المبادلة وقبل أن أحلق فى الفضاء الرحب قال لى العصفور محذراً وهو راقد فى فراشى بعقـله الصغير وجسده الضخم :

— إياك أن تتأخر حتى تباشير الصباح فلن تحصل على كينونتك مرة أخرى ، وستعيش بقية عمرك عقل إنسان فى جسد عصفور .. وستكون العاقل الوحيد فى مملكة الطير ..

وكأن سجيناً فر من سجنه ، سرعان ما أسرعت بالتحليق فى الجو أبغى الطواف بالعالم كله .. أشهد بعينى رأسى ما تنقـله إلى الصحف والمجلات ، وما تقدمه الإذاعة والتليفزيون ..

، مذبحة فى فيتنام . . جاكى تضرب مصوراً بحذائها ..
الرئيس الأمريكى يعقد مؤتمراً صحفياً .. قوات الثورة تطارد
فلول المتسللين فى اليمن .. أمريكا تغزو الفضاء الخارجى .

عرفت طريق من كثرة ما شاهدت فى حياتى الإنسانية ..
راودتنى رغبة لزيارة المعتقل حيث قضى أخى سنوات طويلة
من عمره لايعرف عددها ولا متى تنتهى .. أعتقل لأنه جاهر
يوماً بطلب حريته .. أعتقل دون محاكمة . . دون أن يمثل
أمام القضاء .. بى رغبـــة فى الاطلاع على مجريات الأمور
بادارة الأمن العام التى يساق إليها كل ليلة أولئك المتهمين
دون ما ذنب جنوه ، ويكال لهم العـــذاب أضعاف أضعاف
ما يكال لكافر ملحد فى أغوار الجحيم .. بى رغبة فى زيارة
مواخير الليل حيث يقضى بعضاً من كبار المسئولين سهراتهم
بأموال الرعيـة يلقون بالأموال المنهوبة والمختلسة من خزائن
الدولة تحت أقدام الراقصات والساقطات .. بى رغبة ملحة فى
التسلل إلى قصور القادة الذين تسببوا فى النكبة .. بى رغبة
ملحة فى زيارة مسرح العمليات حيث سقط الآلاف من بنى
وطنى دون ما ذنب اقترفوه ..

تحدونى رغبة عنيفة لكسر الخزائن الحديدية وسرقة ملفات التاريخ

المرى للثورة إذا ان يقسنى لى من العمر لقراءة هـذا التاريخ مع أبناء أبنائى .. تكاثرت الرغبات فى رأسى وشعرت به أثقل من جسد العصفور الذى يحتويه فـكدت أهوى من حالق .. حلقت طويلا تتنابنى وتتنازعنى شتى الرغبات .. ولم أحقق إحداها .. كذلك الذى هبطت عليه ثروة لم يكن يتوقعها واحتار فى أمرها وتمنى آخر الأمر ذهابها فجأة كما هبطت عليه فجأة ..

تطلعت إلى السماء ورأيت الخيط الفاصل يشطرها نصفين .. قلت وأنا أرقب اتساعه وتغلغله فى الظـــلام وبدء انقشاع الظلمة وقلت :

ـ هل أخرق نواميس الطبيعة ؟ . . هل أتحـدى إرادة خالق الـكون ؟ .. ما جدوى حرية فرد واحد إذا أنى لا أستطيع تحرير هذه الجموع المستعبدة . فأنا كائن لا يملك غير حرية نفسه ..

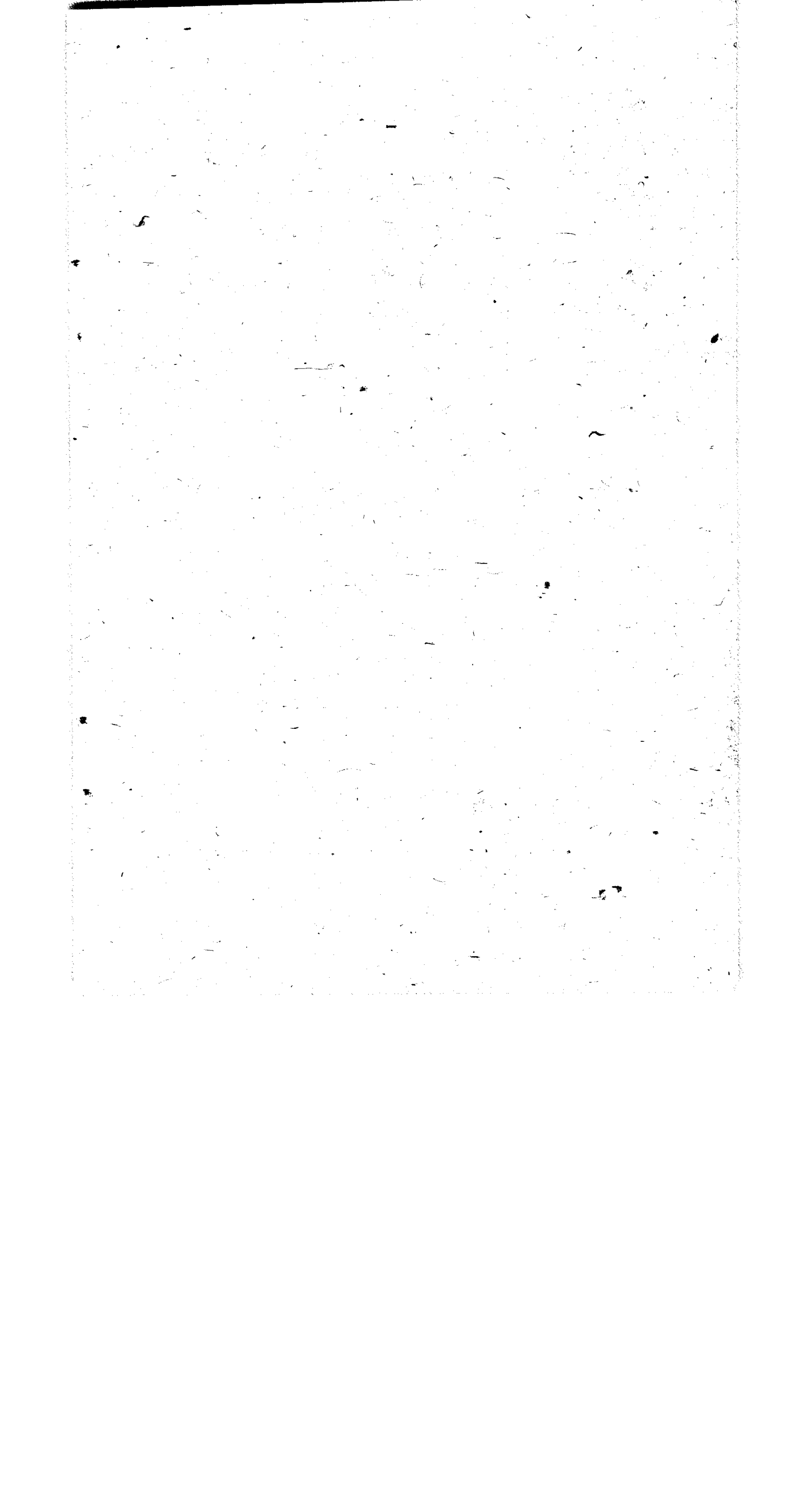
فجأة خرجت من عقلى صيحة جبارة :

ـ أين إذن حريتك يا مسكين وقد استعبدك جسد ضئيل لعصفور ! !

وكما قررت من حجرتى عدت إليها مسرعاً أسترد جسدى ،

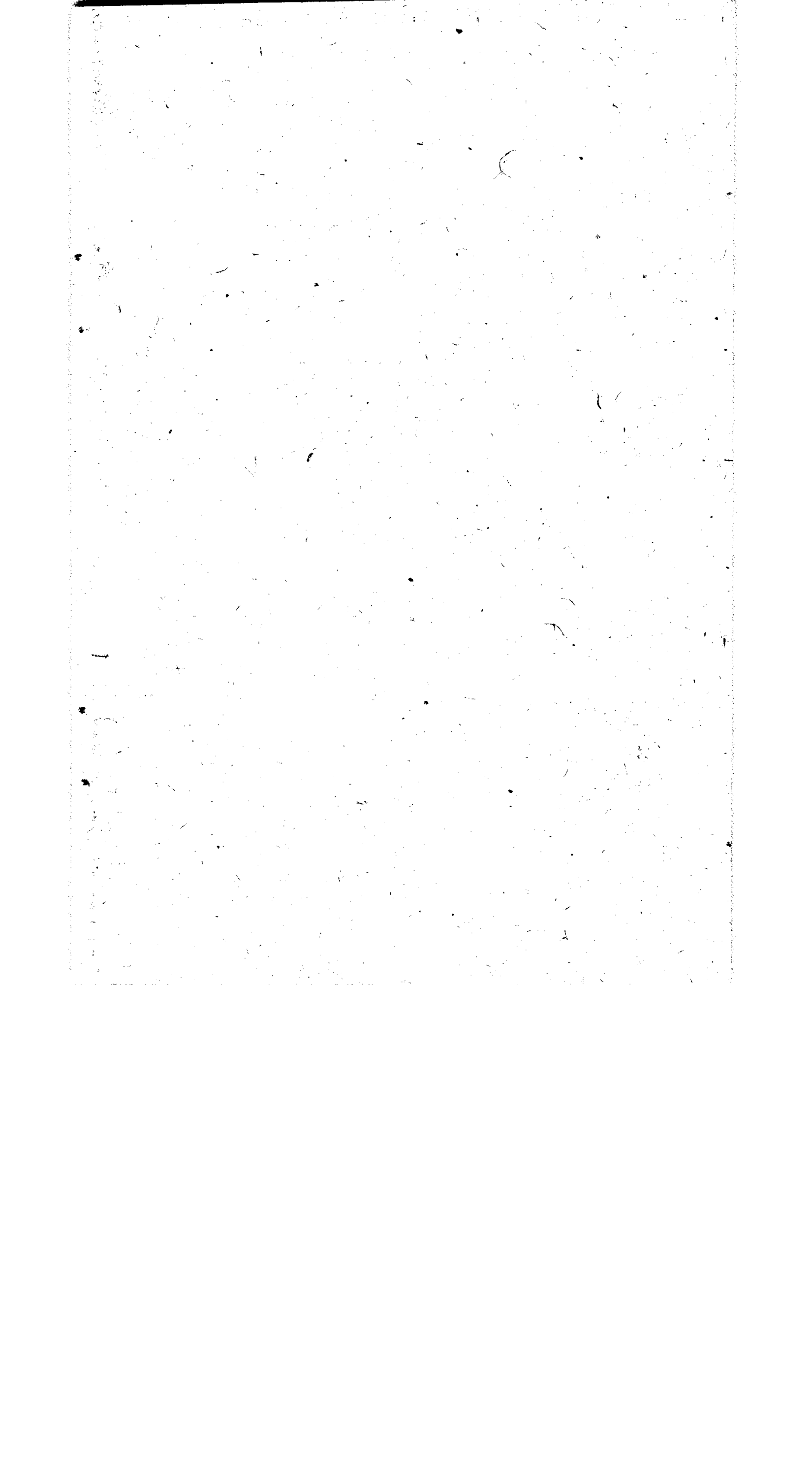
وأدع العصفور جسده .. فلا أحب أن أكون مجنوناً بعقلي في مملكة العصافير .. كما لا أحب العصفور أن يكون مجنوناً بجسده في عالم البشر .. وأيقنت أن للخالق حكمة في خلقه وأنه خلق كل شيء متوائماً مع نفسه عقلاً وجسداً وروحاً ..

طار العصفور ليغرد مع رفاقه .. وألقيت بجسدي فوق الفراش أحلم برحلة أخرى نحو الحرية دون ثمن باهظ كالذي تكلفه أخي الذي خرج حديثاً من المعتقل ..



رغبة فى الانتحار

« كم هو جميل ان يسير المرء مغمض العينين !!
فلن يرى شيئاً ، ولكن كيف يتخلص مما
رآه ، وسكن مرآته .. »



أخرج هويته .. نظر إلى الصورة .. حملق فيها برهة .. مزقها كما مزق الهوية .. صادفته أول سلة مهملات معلقة على عامود الإنارة .. ألقى بما فى قبضة يده وتنهد فى ارتياح .. لقد مزق الدليل على شخصيته الآن صار بلا هوية ، وبعدها .. يمكنه أن ينطلق إلى عالم آخر .. لن يعرفه أحد .. لن يتوصل إلى شخصيته أحد .. شعر بأن الناس ينظرون إليه محدقين .. كأنهم قد فطنوا بغرائزهم الجامحة لما دبره فى نفسه .. لكن .. ماشأنهم به .. أنه الآن حر من أى قيد حر من اسمه وتاريخ ومحل ميلاده وعنوانه .. حر من الأرقام .. الرقم ١٢٦٩٥ سجل مدنى مصر الجديدة .. حر من ١٥-٨-١٩٤٠ التاريخ الذى ولد فيه .. هل يحفظ الناس مثله هذه الأرقام .. أجــــل .. فلكل واحد أرقامه الخاصة .. يحفظها عن ظهر قلب .. سلة مهملات أخرى تنظر إليه غاضبة .. حتماً عليه أن يلقى فيها بعضاً من حاجياته وماملكت يداه .. عبث بجيوبه .. ثمة تذكرة أتوبيس .. مزقها وألقى بهــــا فى أحضان السلة ثم تركها وراءه واستمر فى السير ..

قالت أمه ذات يوم وهو فى الخامسة من عمره عندما التحق بدار الحضانة « يابنى .. إذا ضللت الطريق فاطلب من أى شرطى تلقاه أن يعود بك على العنوان ٣٥ شارع الأحرار » ..

ولد وتربى وترعرع فى شارع الاحرار .. كان الشارع واسعاً بدأ يضيق يوماً بعد يوم .. وعاماً بعد عام .. وأخيراً شعر بالشارع وقد تحول إلى حارة ضيقة .. يطلق عليها — مجازاً — شارع الاحرار..

سلة مهملات أخرى تعترض طريقه .. وقد انتفخت حتى سدت أمامه الطوار كله .. فتش فى جيوبه .. اه .. تذكرة سينما رمسيس .. فقد خرج منها منذ قليل .. كان ينبغى مشاهدة فيلم يذهب بالاكتئاب الذى لازمه طوال الأشهر المنصرمة — ومازال — لكنه خرج من السينما أكثر اكتئاباً .. نظر إلى التذكرة ثم مزقها، وألقى بها فى قلب السلسلة فمادت وانكمشت وتنحت عن الطريق .. ماذا بعد فى جيوبه أو فى حوزته .. فالسلال تطالبه بجواز المرور .. على طول الشارع .. عثر ببضع أوراق أخرى فأعدها ليلقى بكل منها فى سلة ..

قالت الفتاة التى صارت زوجه له بعد ذلك :

— أراك تنعطف فى شارع الأحرار هل تقطن هناك ؟

— اقطن .. !!

وأردف ضاحكا :

— لقد ولدت ونشأت وترعرعت فوق ترابه .. تنسمت هواءه وعبيره .. عشت أسعد طفولة وأجمل صبوة .. تسكن فى أعماق ذكريات جمة من حياتى فى هذا الشارع ..

— شوقتنى لذكرياتك ..

لم يعد الشارع محبباً إلى نفسه .. لكن ما باليد حيلة .. تزوج وعاش فى بيت أسرته ، وكان سعيداً مع زوجته .. توجه إلى أحد المارة متسائلا :

— هل يفضى هذا الشارع إلى الكورنيش ؟

— بالتأكيد .. ستصطدم فى النهاية بسور الكورنيش ..

مرق من بين قدميه كلب هزيل يجرى ويلهث .. ولسانه يطل ويختفى .. المارة يفسحون له الطريق .. ويصطفون على الجانبين خشية أن يلمسهم ..

عاد يردد لنفسه ما قاله الرجل « ستصطدم فى النهاية بسور الكورنيش » لم يقل « ستجد أمامك سور الكورنيش .. أو « يفضى بك إلى .. » لماذا قال لفظة الصدمة هذه ؟ .. هل يبشره بصدمة أخرى .. أنه يعرف أن الشارع يفضى إلى الكورنيش .. لماذا إذن سأل ؟

كاد يصطدم بامرأة تسرع فوق الطوار وهو فى دوامة تأنيب النفس صاحت فى وجهه غاضبة :

— هل أصبت بالعمى ؟

— ليتنى كذلك ..

قالها وفكر فى معناها .. ماذا لو كان أعمى ؟ .. ما كان رأى شيئاً على الإطلاق .. لكن لا بأس .. فليجرب .. وأطبق عينيه .. ظن أنه لن يرى شيئاً .. أبطأت خطواته تتلمس الطريق .. لكن الطريق واضح أمام عينيه .. الزحام على أشده أمام محطة الأتوبيس .. المتعبون والمكدودون أسهرى لقمة العيش يتسكعون رغماً عنهم فى انتظار الأتوبيس .. يرمقون السيارات الخاصة الفارهة الأنيقة الشاغرة بحسد وحقد وغضب وثورة فى الأعماق ..

دوت فى أذنيه كلمات زوجته :

— ماذا حدث ؟ .. زميل أوصلنى بسيارته .. جريمة .. رآنى فى انتظار الأتوبيس فتكرم مشكوراً بتوصيلى ..

— هل معها حق ؟ .. لماذا تتسكع مرغمة مع المتسكعين ؟ .. مادام فى إمكانها أن تصل للبيت بأى وسيلة أخرى .. المهم أن تصل ..

كم هو جميل أن يسهر المرء مغمض العينين !! فلن يرى شيئاً .. ولكن كيف يتخلص مما رآه ، وسكن مرآته كيف يتخلص من ذلك المشهد الهزلى اللعين .. يوم دس المفتاح فى باب الشقة .. زمجر المفتاح وأبى أن يلف لفاته المعتادة . . ظل يعالج زمجرته بالحنو والهدوء . . لكنه أبى أن يلف ويفتح الباب .. استدار خلفه وأطل برأسه من فوق « طرابزين السلم » .. كان صوت زوجته قد صعد إليه .. يعرف أن فى حقيبتها مفتاح آخر .. أنصت لصوتها الحانى وهو يرمق الباب بنظرات غاضبة :

ــ تعالى ياحمدى .. سأعرفك بزوجى ريثما يعود ..

ــ لايانوسه .. ليس الآن .. سأنتظرك بعد الظهر ..

ــ بالتأكيد ..

كاد ينادى صائحاً :

ــ تفضل يا أستاذ حمدى ..

لكن الكلمة لايدرى كيف خرجت على هذا النحو ..

ــ اصعدى ياقذرة يافاجرة ..

تدحرج الزميل فوق الدرجات القلائل التى صعدها مسرعا يبغى

الفرار .. وتطلعت هي إلى أعلى بوجه مصفر ملطخ شفتاه بالدنس .. هرول وساعدها على صعود الدرج يجرجرها إياها فوق الدرجات .. دفعها إلى داخل الشقة بكل ما أوتى من قوة صارخاً فى تهكم مرير :

— لاشىء يحدث .. زميل يناديك باسم الدلع .. أوصلك بسيارته .. جريمة .. من قال إنها جريمة ؟

بوق السيارات يصم أذنيه .. أنه فى عرض الطريق ، والمارة يصرخون :

— حاسب ..

— قف مكانك ..

— لاتتحرك ..

لكنه يندفع غير آبه لشىء .. لا أبواق السيارات ، ولاأصوات التحذير .. جذبه أحد المارة من ذراعه ودفعه أمامه إلى الطوار .. قال له فى ثورة غضب والمارة يحيطون بهما :

— يا أخى ستقتل نفسك ..

ثم عاد الرجل وقال متأسفاً :

— آسف يا أخى .. ظننتك مبصراً .. أليس لك أحد من ذويك

يقودك فى مثل هذه الطرق الخطرة ؟

هز الرجل يديه يائساً قائلا وهو ينصرف :

— مسكين .. يبدو أنه أخرس ، وأعمى ، وأصم ..

أخذ المجتمعون فى الانصراف ماعدا واحداً قال فى عطف ورثاء :

— أين تريد الذهاب ؟

— أين نحن الآن ؟

— فى ميدان الشهيد ..

— آه .. تذكرت .. شكراً لك ..

هدأ كل شىء وسكن .. فتح عينيه .. أخذ يرقب حركة المرور فى الميدان .. الترام .. الأتوبيسات .. السيارات .. كل شىء فى سباق مع الزمن .. مر كلب هزيل من أمامه — تذكر — أنه نفس الكلب الذى رآه .. كان مثله جاداً يجرى ويلهث وقد سبقه .. وقفز من فوق الطوار مسرعاً ، متوسداً مكاناً راقه وسط قضيبى شريط الترام .. الترام يقترب .. وصليل الجرس مستمر فى التنبيه .. لكن الكلب غير آبه لشىء .. أوقف السائق الترام ، وغادره .. دفع الكلب بقدمه .. لكنه لم يتحرك أزاحه بكلتا قدميه وكأنه قد سمر فى الأرض .. رفعه بين ذراعيه

وألقى به بعيداً .. ثم عاد وتحرك الترام .. أفاق الكلب من سقطته وعاد إلى نفس مكانه بين القضيبين واستقر ..

استمر ينظر إلى الكلب محدثاً نفسه :

— هل ضاق هو أيضاً بحياته ؟ .. هل مزق هويته ؟ .. هل قرر في نفسه أمراً ؟ .. هل ضاق صدره بالكلاب ؟ .

شعر برغبة عارمة في أن يأخذ الكلب بين أحضانه ، ويقبله ، ومرة أخرى أوقف الكلب حركة الترام .. وتجمهر الركاب وبدا الكلب وكأنه « مسعور » يدافع عن مكانه فوق الأرض بشراسة .. وسط ميدان الشهيد .. صاح من مكانه :

— ماذا تريدون منه .. دعوه يفعل مايشاء ..

صاح أحدهم مغتاظاً :

— أهو كلبك ؟

— كلا .. كلا ثم كلا ..

قال أحدهم محذراً :

— لقد صار الكلب خطراً .. حذار أن يلمسه أحد وإلا هجم عليه أبلغوا جمعية الرفق بالحيوان ..

قال فى نفسه وهو يشهد الميدان وقد اكتظ بالزحام .. الكل يشهد واقعة الكلب فى ضحك وسخرية :

ـــ الرفق بالحيوان .. الرفق بالحيوان ..

ثم ازداد فاه اتساعاً فى ضحك جنونى وهو يضرب كفاً بكف .. ويردد بصوت مرتفع لفت إليه الأنظار :

ـــ الرفق بالحيوان .. الرفق بالحيوان ..

توقف عن الضحك وأخذ يحدق فى بلاهة .. عربة بيضاء فارهة تقف أمامه .. صنعت حائلا بينه وبين الكلب .. كستار أسدل ومنع رؤية المتفرجين الممثلين لكنه رغب فى رؤية ما يحدث وراء الكواليس فأسرع يمنة حتى يتمكن من التطلع خلف الكواليس .. حاول رجال الجمعية اصطياد الكلب بشباكهم لكنهم لم يفلحوا .. فقد كان الكلب ذكياً وماهراً فى الإفلات منهم .. مهما أحاطوه بشباكهم .. أخيراً بعد مجهود عنيف لم يجد فتيلا مع إصرار الكلب أسرع أحدهم إلى العربة وتناول بندقية وعاد داعياً الجمهور بصوت جهورى بالابتعاد.. ثم صوبها إلى الكلب وأرداه قتيلا برصاصة واحدة .. رفعوه سريعاً وألقوا به داخل العربة ..

ظل واقفا حتى خلا الميدان ، وعادت الحياة إلى صخبهـــا

٧٧٨٧

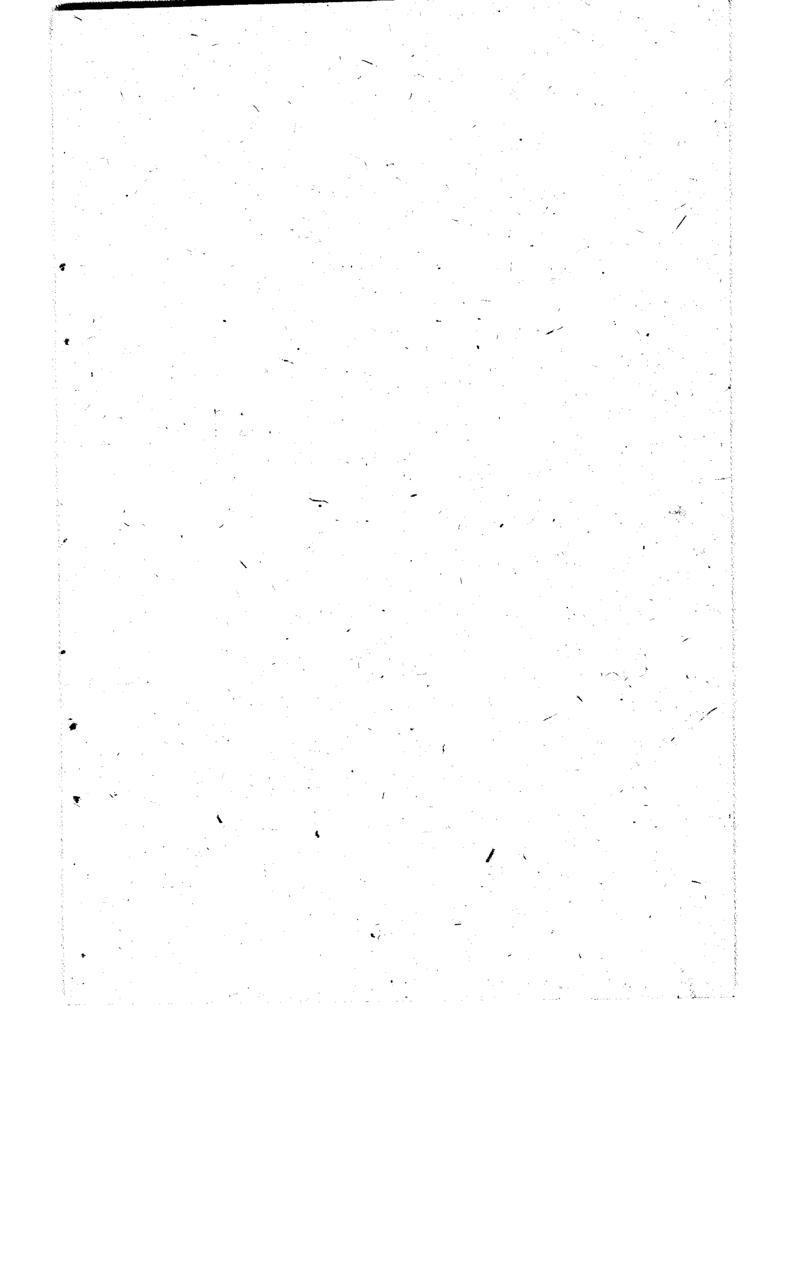
وضجيجها .. المارة .. السيارات .. الترام .. العربات .. نظر أمامه عبر الميدان .. الكورنيش قريب جداً منه .. مسيرة خمس دقائق أو أقل .. استدار ونظر إلى امتداد الشارع اللانهائي الذي جاء منه .. انطلق مسرعا عائداً إلى حيث كانت البداية وهو يردد كيفاه :

— كان الكلب يعرف طريقه أما أنا .. فسأدعي أنني ضللت الطريق ..

وأخذ يتلفت باحثاً عن أي شرطي ..

لحظة حب حقيقية واحدة

«كان يحب دائما أن يراها عندما
تكون مرهقة ومتعبة .. كانت
تبدو أمام عينيه لوحة يقف أمامها
في خشوع ورهبة ..»



لمحها أمين لمحة عابرة ، وهى تنعطف فى شارع شريف بعد سنوات .. لمح أميرة حبه وأحلام شبابه ، وسنوات طوال من عمره المحسوب عليه .. لمح نحولها الواضح ، وعلامات الشقاء المرتسمة على كل جزء من جسدها .. لمح شفتيها المزمومتين المرتعشتين دونما كلمة .. لمح ذراعيها الساقطتين إلى جوار جسدها الهزيل دونما حراك .. لمحها تسير ببطء .. عيناها غائرتان محمرتان ، وكأنها كانت تبكى لتوها .. شعرها معقوص خلف رأسها دونما عناية .. كانت أميرة فى زمانها ولم تعد أميرة .. تحولت تحت بطش وجبروت الأيام إلى كومة من اللحم والعظم .. أقرب إلى المومياء منها إلى الأحياء ..

كانت طفلة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها تجرى أمامه فى حدائق القناطر الخيرية بين الورود حافية القدمين ، وجدائل سوداء تطير خلفها أملا فى اللحاق بها .. كان وجهها الفتى ينطق بالبراءة ، وشفتاها تختلجان بالشقاوة والسعادة .. صاحت وهى ملتفتة إليه :

ــ لن تستطيع اللحاق بى ..

ــ وإن لحقت بك .. أنال ماتصبو إليه نفسى ..

ــ على شريطة ألا أكون متعبة ..

واستمرت فى الجرى ، واستمر يجرى وراءها سبع سنوات عمر حبهما .. كان يمكنه اللحاق بها وأخذها بين ذراعيه ، ونوال القبلة التى تمناها وحلم بها ، ولكن ذلك لم يكن جميلا له .. كان يحب دائماً أن يراها عندما تكون مرهقة ومتعبة .. كانت تبدو أمام عينيه لوحة يقف أمامها فى خشوع ورهبة .. فاتنة .. رائعة الجمال .. صدرها يعلو وينخفض .. ينبض بالحب والحياة .. يقص فى صعوده وهبوطه قصة النبض .. قصة الحياة نفسها .. وجهها بما يحمل من اختلاجات متلونة بألوان « قوس قزح » ، اللمعتان الخضروان فى عينيها تتحركان فى محجريهما يمنة ويسرة علواً وانخفاضاً كعينى ساحر .. كانت تبدو له فائقة الجمال .. كأن شيئاً فى نفسه يريدها متمردة .. يريدها دائماً مرهقة متعبة .. غير عادية ، وغير مألوفة .. وكانت تحب فيه فتوته وشبابه .. تتلمس دوماً القوة فى ذراعيه .. وتعجب أكثر الإعجاب بصدره العريض وكتفيه .. ووجهه المربع الوسيم .. كان زينة الشباب فى الحى سرها كثيراً أن تفوز به وحدها ..

كانت على طول الطريق إلى بيته طفلة انبعث وجهها الأبيض من بين دنيا الليل السوداء .. كانت تسير متعلقة بذراعه على شاطىء النيل فى الأصيل .. تهتز حقيبتها فوق أمواج النسيم .. ترفع رأسها تارة وتطرقها تارة أخرى ، وبين هذه وتلك ابتسامة .

رفعت رأسها إليه وقالت :

ــ وماذا بعد ؟ الجميع يعرفون الحكاية .. حكايتنا على لسانهم مثل حكاية « قيس وليلى » ..

ــ لا بأس .. غداً سنفوق بحبنا قيس وليلى ..

ــ لا أفهم ؟

ــ سنتزوج ..

أخذ أمين يقلب فى أدراج مكتبه .. خطابات .. صور .. ذكريات كان ينبغى أن يكون نائماً الآن .. ولكن .. أميرة .. رآها بعد سنوات لم يرها فيها ولم يسمع عنها شيئاً بالمرة .. قبل أن يداف إلى حجرته ، ويغلق بابها عليه .. كان ثائراً غاضباً يصيح فى زوجته :

ــ الساعة الرابعة .. والطعام لم ينضج بعد ..

ردت عليه فى استكانة المغلوب على أمره :

ــ أعذرنى يا أمين .. عشر دقائق وينضج الطعام ..

ــ عشرة ولا ساعة .. لا أريد طعاماً .. سأنام لاتوقظينى ..

... ...

ــ ما رأيك ؟ .. أنت مدعو لتناول الغداء على حسابى اليوم..

... ...

— ياحبيبي .. افتح فمك ..

— كفى يا أميرة .. لقد امتلأت ..

— هذه فقط من أجلي ..

... ...

كانت « الزغاريد » تودعهما فوق الدرج وأمام البيت .. دلفا إلى عربة مزدانة بالزهور .. تفوح رائحتها العطرة .. هو في حلته الزرقاء .. وهي في ثوبها الفضي ، والتهاني والقبلات والتعليقات متناثرة فوق الشفاه تحيط بهما :

— الله يسعدهم .. لهما أكثر من عشر سنوات يحب كل منهما الآخر ..

— سيكونا أسعد الأزواج ..

— العقبى لأنجالك يا ابراهيم ..

— وابنتك يا محمد .. يرزقها الله بابن الحلال مثل الأستاذ أمين ..

— « حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي » ..

رتل من السيارات في موكب مهول يهرول وراء العروسين .. المارة يتوقفون على الطوارين ليروا العروسين .. قيس يحيط كتفي ليلى بذراعه ، وليلى تميل برأسها فوق صدر قيس .. لم يتمكنا في الزمن

الغابر من إتمام اللقاء لكنهما الآن في الزمن الحاضر أوشك اللقاء أن يتم بل يؤمن الجميع بأنه قد تم منذ عقد القران ..

صاح أمين وقد غمره السرور وسرى في دمه :

ــ هذه صورة الزفاف ..

حدق فيها كطفل صغير .. وأخذ يحدث نفسه كطفل يلهو بدمية يحبها :

ــ هل أصدق أني هــذا الرجل .. لا .. مستحيل .. أنا .. لا .. أنا .. لست أنا .. أنا .. لا .. أنا .. نعم ، نعم ..

أغلقا الباب .. وقفا في قبلتهما الأولى .. قبلة ظن أمين أن فيها قمــة هواهما الطويل .. وظنت أميرة أنها في غيبوبة .. حلم يقظة مقيت .. كانت قبلتهما الأولى والأخيرة .. فقد تجمع فيها كل الحب من جانبه .. وكل المقت من جانبها .. ارتعشت أميرة وهرولت إلى حجرة النوم ، وأغلقت بابها من الداخل بالمفتاح ..

أخذ أمين يناجي نفسه .

ــ اللحظــة .. ما هي ؟ هل يمكن للانسان أن ينسى لحظــة ما ؟ هل هناك جبرية في النسيان ؟ .. نعم .. هناك لحظات يجد الانسان

نفسه فيها بلا عقل .. بلا ذاكرة .. بلا شعور .. لحظات لا يستطيع تخيلها أو تصورها .. لحظة الاصطدام المروع فى أى حادث .. لا نشهد الحادث ولكنا نرى النتيجة من ضحايا وأشلاء وأشلاء ..

مراراً ما حاول أمين استحضار تلك اللحظات القاسية المريرة التى قلبت حياته رأساً على عقب فى لحظة .. انتهت سنوات الحب فى لحظة افترقا بعدها .. يستمع إلى بكائها من خلال حائط امتداده سبع سنوات .. وسمكه لحظة واحدة .. وتستمع أميرة إلى تنهداته وزفراته وفرقعة عود الثقاب فى كل لحظة ..

كان لابد من ذر الرماد فى العيون ، وكما كان للحب قصة تناقلتها ألسنة الناس فى الحى ... كان للفراق قصص كثيرة .. وكلها تبعد عن الحقيقة الكامنة فى نفسيهما آلاف الأميال .. الحقيقة التى ظلت مختفية طوال سنوات الحب ، وظهرت فجأة فى لحظة .. الحقيقة التى يؤمن بها اليوم وهى أنهما كانا فى حاجة إلى لحظة حب حقيقية واحدة ..

كان عليه أن يتزوج ثانية فتزوج .. وأنجب محسن .. كان يجب عليه أن يحيا ، وأن ينسى كل شىء .. وها هو الزمن يبعثر ما عمل على نسيانه وإخفائه .. ها هو الزمن يبعثر محتويات غرفته

الخلفية التى ظلت مغلقة طيلة سنوات الزواج الثانى .. عدد هائل من الصور افترشه أمام عينيه :

ــ هذه فى الأهرامات .. وهذه فى القناطر الخيرية ، وهــذه فى حديقة الأسماك ، وهذه فى « الكازينو » وهذه على الكورنيش ، وهذه وهذه .. أبعد كل هذا كنا فى حاجة إلى لحظة حب حقيقية واحدة .. أما زلت لا أؤمن بهذه الحقيقة .. أما زال عقلى لا يستطيع تصور تلك اللحظات التى غيرت مجرى حياتى .. أما زال خيالى العقيم لا يستطيع رسم صورة لها ..

احتوى رأسه بين كفيه وانخرط فى بكاء .. انهمرت دموعه فى صمت ..

أخذ محسن يضرب باب حجرة أبيه بيده الصغيرة الطرية منادياً :

ــ بابا .. بابا ..

أتاه صوت زوجته من المطبخ :

ــ تعالى هنا يا محسن بابا نائم .. لا توقظ بابا ..

رد الصغير باكياً :

ــ أريد بابا .. أريد بابا ..

نهض أمين متثاقلا يئن تحت وطأة السنين .. فتح البـــاب وأدخل محسن .. رفعه بين ذراعيه وقبله ، ومسح له دموعه .. عاد إلى الجلوس وأجلسه فوق ركبتيه .. وقف محسن واعتلى سطح المكتب واستغرق فى الضحك .. أخذ يعبث بالصور فوق الأرض .. ضربه أمين بحنان ورفق على ذراعه :

— عيب .. عيب يا محسن ..

أخذ أمين يجمع الصور التى سقطت .. كلما التقط واحدة حملق فيها بدهشة وكأنه يراها لأول مرة .. قطع الصمت صوت تمزق أحداها بين يدى محسن .. اختطفها أمين منه .. حدق فى الصـورة المشطورة نصفين .. هو فى جانب منها وأميرة فى الجانب الآخر ، وكان محسن مستغرقاً فى الضحك .. حدج أمين ابنه بنظرة قاسية .. كف محسن عن الضحك وقال :

— أغاضب يا بابا ..

أخذت القسوة تتلاشى من نظرة أمين بالتدريج .. ألقى بالصور كلها على الأرض .. دفعها بقدمه تحت الكنبة « الفوتيه » .

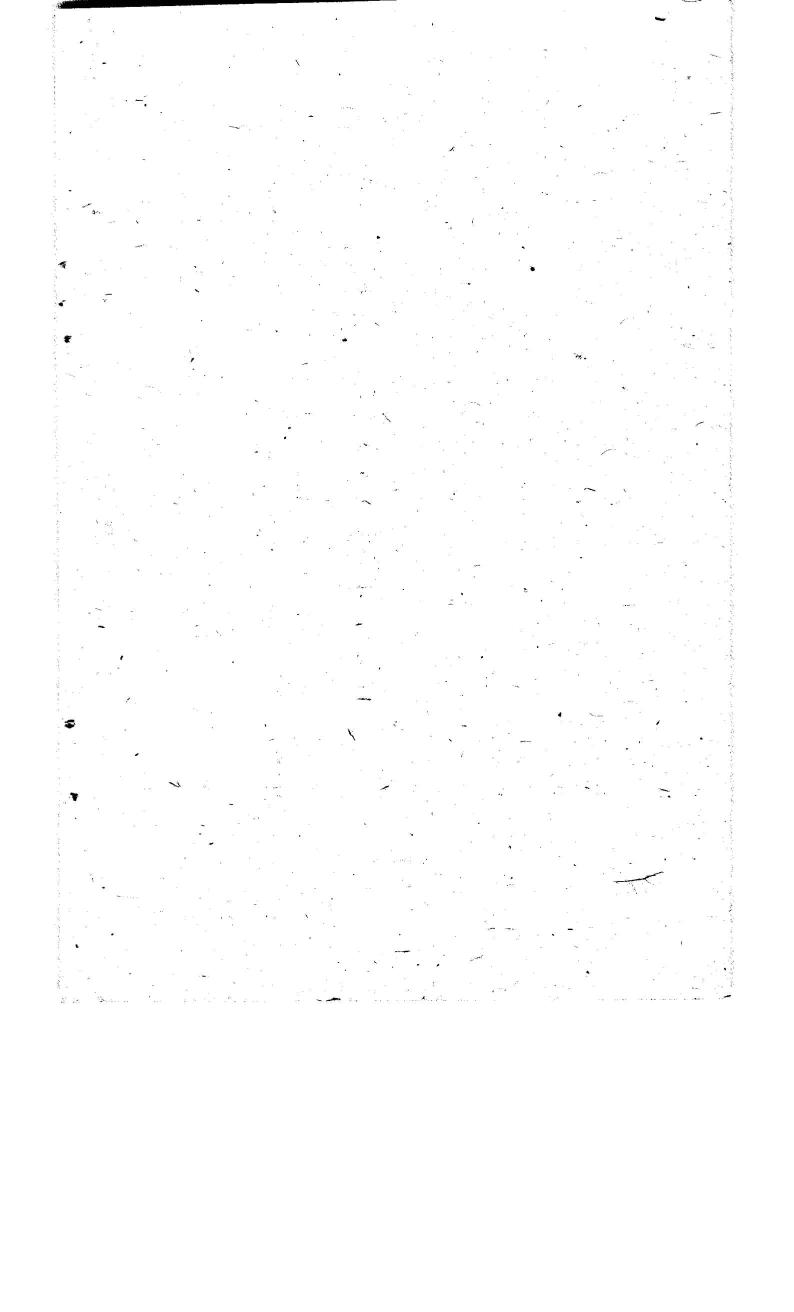
جاءه صوت زوجته من الصالة :

ــ الطعام جاهز يا أمين ..

ــ حاضر .. أنا ...

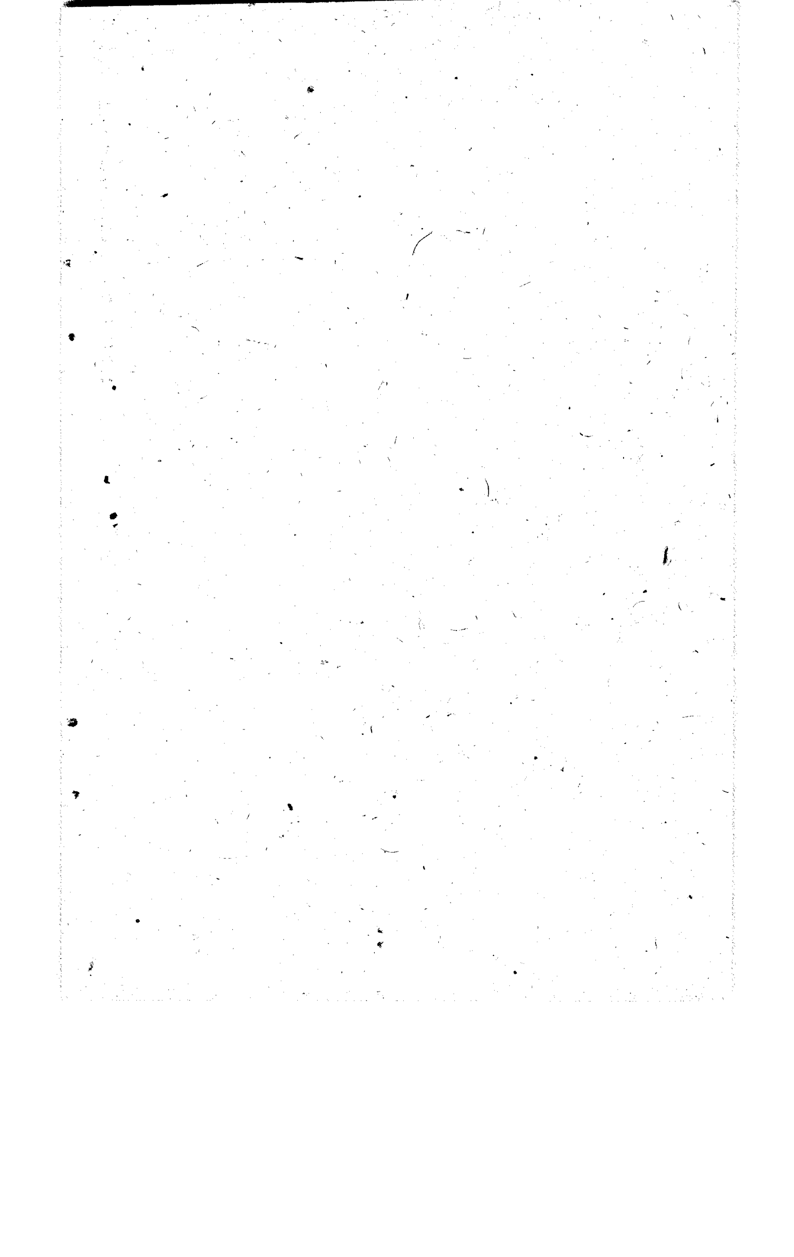
رفع محسن بين ذراعيه وقبله قائلا :

ــ أنا ومحسن مقبلون . .



عصفور الحب ودائرة الموت

« شغلت بالتفكير فى مساعدة العصفور على الفرار من سجنه ، فالحرية هى حياته ووجوده ، وبدونها يموت . . بالأمس كنت مثله . . »



رغم مضى ما يزيد عن الساعتين لم يلحظ أحد منا العطب الذى أصاب النافذة الوحيدة فى حجرة مكتبنا .. فضوء لمبات « النيون » الأبيض يجعلنا نشعر بعدم افتقاد ضوء النهار .. كانت « شيش » النافذة عبارة عن ستارة من شرائط خشبية « حصيرة » وكانت ساقطة بسبب انقطاع الشريط الذى يستخدم فى رفعها وإسدالها ..

لاحظنا هـذا العطب ونحن نستمع إلى صوت عصفور يرن فى فضاء الحجرة .. تطلعنا بحثاً عنه .. حجرة مكتبنا واسعة ، جدرانها عالية ، يبرز قرب سقفها إفريز صغير كمظلة للمبات « النيون » ..

أشعر تحت هذا السقف العالى بإنسانيتى بينما يصطدم رأسى بسقف الحجرة فى البيت .. بالأمس كدت أختنق ، والموت يدنو منى ويدنو ، فمنذ بضعة أشهر وأنا حبيس الملل والروتين .. أستيقظ أذهب إلى العمـل .. أعود ظهراً .. لا أبرح البيت إلا فى صباح اليوم التالى ! .. وتمر بى أيام العطلات الرسمية والأجازات مروراً عابراً .. لم أكن معتاداً هـذه الحياة .. طوال ما يربو على الخمسة عشر عاماً .. فكرت فى الفرار من هذا السجن .. ولكن كيف ذلك ونصفى الآخر — حبيبتى — حبيسة ؟!

تطلعت عيوننا إلى العصفور يقف فى أحد أركان الحجرة فوق الإفريز يهز رأسه فى حيرة ..

قالت سميرة متألمة :

— يا حرام .. عصفور حبيس ..

قالت زهرة وهى تنظر نحو حسانين أثناء وضعه القهوة فوق مكتبى :

— ارفع الستارة ياحسانين .. العصفور سيجن ..

قال حسانين :

— حاولت مساعدته على الخروج ولم أفلح ..

شغلت بالتفكير فى مساعدة العصفور على الفرار من سجنه ، فالحرية هى حياته ووجوده ، وبدونها يموت .. بالأمس كنت مثله ، كدت أجن وأنا أتطلع إلى جدران حجرتى الضيقة .. شعر رأسى متصلب كأسنان المشط .. الصداع يحطم رأسى بما تحوى من أفكار وخواطر .. يخيل لى أن القفز من الشرفة فيه خلاص روحى الحبيسة المعذبة .. تسألنى حبيبتى :

— ماذا بك ياحبيبى ؟

قلت وأنا أرى فى وجهها الحدب والحنان على نفسى الممزقة :

— لا شىء . .

تلح على فى السؤال وأصرخ فى غضب :

— روحى الحبيسة تموت موتاً بطيئاً .. لم أعد أحتمل هذا العذاب.. لا أستطيع النوم .. فقدت شهيتى للطعام .. صحتى فى تدهور مستمر . .

وأتركها وأطل من الشرفة وأردد :

— ها هى الحياة بين الناس .. أما هنا فالموت .. أريد حريتى ..

تقول فى حزن :

— ماذا أستطيع من أجلك ؟ !

وأرد عليها متألماً :

— لا أستطيع أن أجد حريتى بدونك .. لا أستطيع أن أبقى معك فى هذا السجن . .

واستغرقت فى التفكير وأنا أضرب جبهتى بيدى قائلا :

— لابد من حل .. لابد من حل . .

تركتنى وذهبت لتعد لى فنجاناً من القهوة ، وأنا أقترب شيئاً فشيئاً من الفكرة التى أجد فيها بعض الراحة .. قلت فى نفسى : « لم لا أحصل على حريتى بعقد القران ؟ » .. هللت الفرحة فى صدرى .. وجدت فى تنفيذ هذه الفكرة حريتى التى عشت طوال عمرى أنعم بها .. منذ أدركت شبابى وأنا أحمل على عاتقى مسئوليتى عن نفسى .. نفض أبى يده منى وأنا فى الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرى وتركنى أسلك طريقى فى الدراسة ثم فى العمل ثم فى الزواج أخيراً ..

جاءت حبيبتى تحمل لى فنجان القهوة .. قلت والسرور يبدو على وجهى :

— ما رأيك لو عقدنا القران ؟ .. سنحصل على حريتنا ..

قالت :

— وهل تظن أبى يوافق ؟

قلت :

— وماذا يمنعه من الموافقة ؟ .. انى أبحث عن راحتى النفسية وإلا مت حبيساً ..

رفعت زهرة صوتها قائلة :

– يا حرام .. العصفور سيموت جوعاً ..

قلت أكثر إشفاقاً على العصفور :

– الجوع لا يؤدى إلى الموت وإنما فقدان الحرية هو الموت بعينه ..

قالت سميرة :

– لا شك أنه حبيس منذ أمس !

نهضت واقفاً .. أطفأت لمبات « النيون » بدت الحجرة كأنها واقعة فى ظلال بناء شاهق ، وضوء الشمس يدخل إليها من فرجة صغيرة أسفل الستارة الساقطة ، والعصفور يلف ويدور مع جدران الحجرة أشبه بمجنون فقد عقله .. وكلنا يحدثه فى صمت « أخرج .. الضوء أسفل الستارة سبيلك إلى الحرية .. أخرج » ..

واستمر الحال بعض الوقت .. الحجرة سابحة فى الظلال وضوء الشمس يسقط أسفل الستارة ، والعصفور يدور فى جنون متنقلا من ركن إلى ركن ..

قالت سميرة :

– ابحثوا عن عامل لإصلاح الستارة .. لن يعرف العصفور طريقه إلى الحرية إلا بعد رفعها !!

أضأت النور وعدت إلى مكتبى ، انكمش العصفور فوق الإفريز .. قالت زهرة غاضبة :

ـ يا له من عصفور غبى !!

وعقبت وهى تمصمص شفتيها :

ـ لن يخرج من هنا حياً ..

قلت وأنا أفتش عنه :

ـ بذلنا ما فى وسعنا ..

استقرت عيناى على الستارة المسدلة وأنا أرى فى العصفور نفسى قلت لوالد حبيبتى :

ـ اننى انسان عشت حياتى فى النور حراً طليقاً ..

قاطعنى قائلا :

ـ ماذا يمنعك أن تكون حراً طليقاً ؟ أعرف أنك عشت تمتع نفسك مع أصدقائك ..

قلت :

ـ هذا حق .. كنت حراً وحدى أما الآن فهذا خاتم ابنتك فى إصبعى يحملنى مسئولية كبيرة .. لست أنانياً ، ولست كاذباً ..

أضع على عاتق مسئولية إسعادها .. لا أحتمل أن أشعر بالسعادة فى أى شىء لا تشاركنى فيه سواء أكان طعاماً أو شراباً .. نزهة أو حفلا .. سروراً كان أو حزناً ..

عرضت فكرة عقد القران وفى داخلى أتعجب .. كيف يفكر حماى ؟ .. أما زال ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين هناك تلك العادات والتقاليد ؟ .. أما زال يوجد فى المجتمع الأب الذى يتحكم فى مصير بناته ؟ .. لقد تغير البشر ، وتغير الزمن وبقى بعض الأزواج متمسكون بدكتاتوريتهم فى بيوتهم مع زوجاتهم أو بناتهم .. ما زال حماى يفكر بعقلية الجيل الذى ذهب إلى حال سبيله .. ما زال يحيط بناته بالجدران ظناً أن فى ذلك حماية لهن .. لا يعرف أنهن قادرات على مواجهة الحياة بمفردهن ..

أفرغت ما فى جعبتى من غضب وثورة فمنذ إقامة حفل الخطوبة وأنا أقيم بينهم فرداً من أفراد عائلتهم ، لا يباعد بينى وبين حبيبتى شىء ، ماذا يخيفه إذن ؟ .. ماذا يخيفه لو ترك لنا حريتنا ؟ .. يتعلل بالخوف من كلام الناس .. وهل الناس الآن فى سكوت .. يخشى لو نلنا حريتنا وخرجنا معاً مرة ، ومرة ، ومرات أن أفكر فى الانفصال عنها يوماً ما ، ويتقول الناس .. ألا يخشى أن يحدث ما يخافه الآن مثلا أو غداً بعد شعورى بعذاب ووطأة فقد الحرية على روحى وضياع نفسى .. ألا يخشى تقول الناس ساعتئذ بما هو

أكثر .. لكنى وطنت نفسى أن أتعامل مع الناس حسب أفكارهم ، وسبيلى إلى راحة نفسى وحصولى على حريتى فى تفكير حماى عقد القران .. لن يضيرنى عقد القران فى شىء بل سيفيدنى كثيراً .. يكفى شعورى بالحرية .. أفرغت ما فى جعبتى من قرف وضياع ، وشعرت بالراحة تتسلل إلى صدرى . فمن أجل حبيبتى يهون كل شىء ..

دلف حسانين ووضع القهوة لثلاثتنا ، وأنا وزهرة وسميرة .. كأننا فى مأتم دون اتفاق .. وأذهاننا مع العصفور المتعلق بالسقف ، لائذاً خائفاً يظن أننا نعمل على اصطياده وقتله .. ليست لديه القدرة على استيعاب ما فى صدورنا من مشاعر الحزن والألم ، ولا فهم ما قلناه منذ الصباح من كلمات .. لو عرف وفهم أن مايشغلنا هو حريته التى فقدها منذ أمس لهبط عن طيب خاطر إلى راحة يدى أو راحة يدى زهرة أو سميرة .. ولساعدناه جميعاً على النجاة بحريته من داخل السجن الذى نخشى جميعاً أن يصير قبراً له ..

ذاعت قصة العصفور فى الإدارات المختلفة ، وامتلأت أسماع الموظفين بحكاية العصفور الحبيس فى حجرتنا .. كل من يدخل يسأل :

ــ ألم يخرج العصفور ؟

ونجيبة :

— لم يخرج .. سيموت المسكين !!

عرفنا من حسانين أنه فى السادسة والنصف من مساء أمس وضوء النهار يولى الأدبار ، انتهى من تنظيف الحجرة ، ثم اتجه إلى النافذة ليسدل الستارة .. تناهى إلى سمعه بعد إسدالها صوت العصفور ، حاول رفع الستارة ثانية لإخراجه ، وفجأة هبطت دفعة واحدة معطلة ، وكان الظلام قد عم السكون ..

قرب يوم العمل على الإنتهاء .. فشلنا فى مساعدة العصفور على الخروج من محبسه ، وفشلنا فى استدعاء عامل لإصلاح الستارة التى لم يتسن لنا إصلاحها قبل يومين أو ثلاثة .. فكرت زهرة أن تكسر له قطعة بسكويت وتتركها له فوق أحد المكاتب .. ابتسمت سميرة لفكرتها الساذجة وقالت :

— يبدو أنه مات .. لا صوت له ..

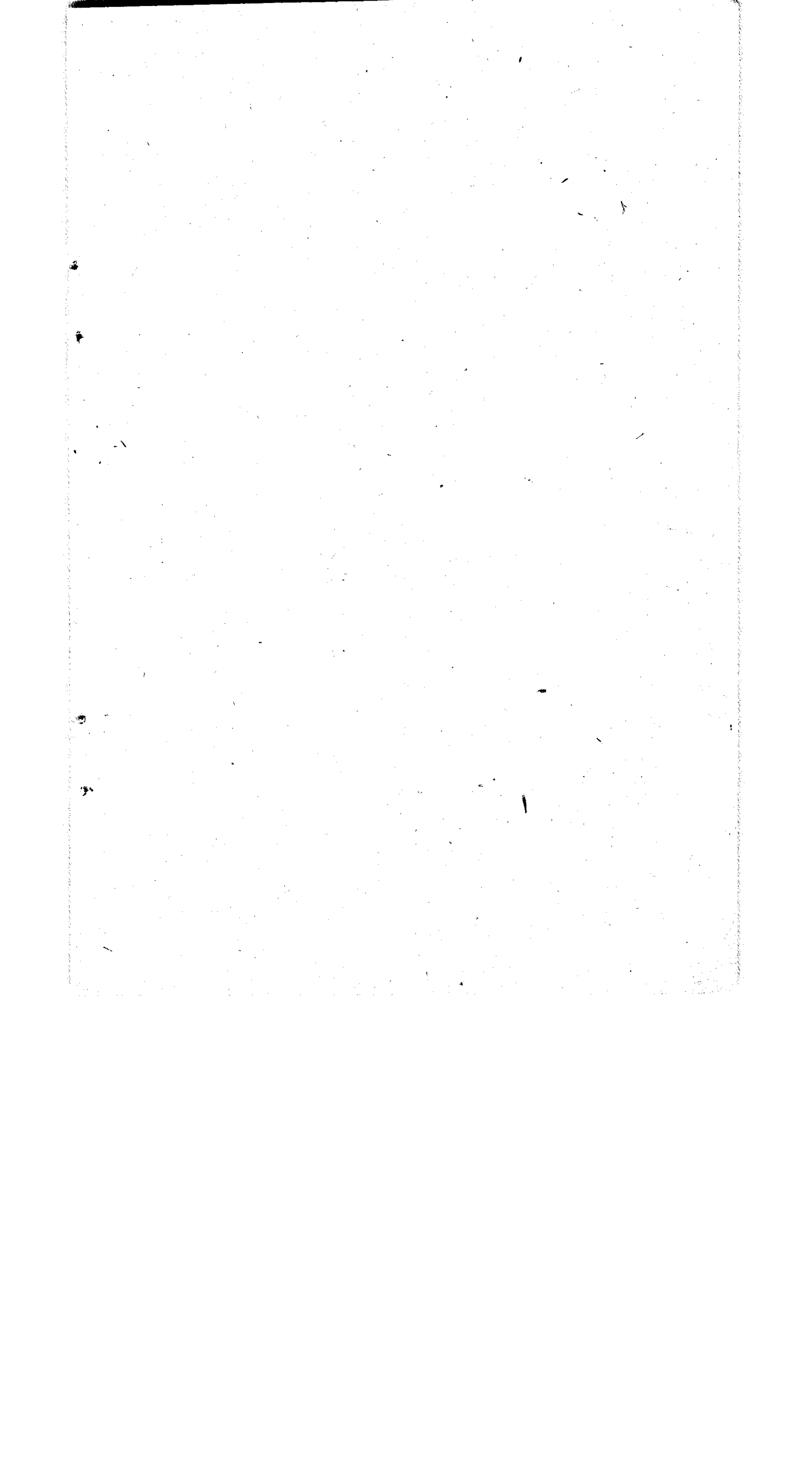
عدت إلى البيت وأنا أشعر بأن العصفور قد قايضنى على عمرى .. بادلنى العمر ، واستمراراً لحديثى مع أسرة حبيبتى قصصت ما حدث للعصفور ، ورأيتهم يتألمون وهم يرددون :

— يا العصفور المسكين ! ؟

مدت حبيبتى يدها واحتضنت يدى ، وكنت قد فزت بالموافقة على الخروج إلى الحياة مع حبيبتى .. وشعرت بنسيم الحرية يداعب وجهينا .. وأنا أرى فى العصفور الميت حقبة من حياتى عشتها سجيناً قد ولت .. وولد عصفور الحب من جديد ليغرد ويملأ الحياة غناء ...

ذعر فى الحديقة

« الوحش لايضر أحداً إلا إذا جاع فالجوع
كافر .. اذن لو أشبعناه لن يضر أحداً ..
لن يسيء استخدام حريته .... » .



كأى إنسان كنت — ومازلت — أعيش .. تقوم أعضاء جسدى بوظائفها العادية : آكل ، وأتنفس ، وأدثر جسدى بالملابس .. أضحك ، وأبكى ، أمرض ، وأشفى ، أحب ، وأبغض ، أدنو ، وأتباعد ، أنام وأستيقظ ، أفكر وأحس .. تحولت حياتى إلى جحيم عندما كبرت .. خيالى ، أجل .. كنت إنساناً خيالياً .. لزمتنى هذه الصفة نتيجة لما كنت أصبو إليه .. ويداعبنى باستمرار فى أحلامى المجد .. الشهرة المال .. وهم السعادة .. وكان من نتيجة خيالى أن نقمت على حياتى فى فترة عصيبة من عمرى ، وأنا فى الثامنة عشرة تقريباً .. نقمت على أهلى وأسرتى ، نقمت على خلانى ، نقمت على وجودى ذاته ! ..

وحدى بدأت أعيش .. أذهب إلى العمل ثم أغادره لألتقى بنفسى طوعاً لرغباتى .. أذهب إلى أى مكان ييسر لى قضاء وقت طيب بعيداً عن الناس ، كل الناس .. ساقتنى الأقدار ذات يوم إلى حديقة الحيوان ، وكان يوم ثلاثاء .. وكانت الحديقة تكاد تكون تقفر من الرواد .. عدد ضئيل من العشاق يحتلون بعض المناضد فى جزيرة الشاى .. بعض الأطفال من أبناء الأثرياء — هكذا دل عليهم حالهم — يتنعمون بحريتهم .. يلعبون ويلهون فى مرح وسرور ..

لعل أحداً يتساءل كما كنت أسأل نفسى دوماً . لماذا أركن إلى الوحدة والانعزال ؟ . وأجيب بأنى فى وحدتى كنت أترك العنان لخيالى .. أتركه يسبح أينما شاء محلقاً فى أجواز الفضاء مرتاداً أعماق البحار والمحيطات ، سابحاً فى طبقات الجو ، أشبه بطائر لا يمل التحليق .. يفتش فى المعقول واللامعقول ..

كنت أتمشى فى طرقات الحديقة ، وخيالى يحلق ويرف حولى أحياناً ثم يتركنى أحياناً أخرى .. وقفت أحملق فى حارس السبع .. والنمر ، وهو يقدم لهما طعام الغداء .. تقدم بالطعام إلى السبع فزأر زئيراً عالياً امتناناً وشكراً .. وأخذ النمر يدور ويلف داخل قفصه الصغير الذى شيد خصيصاً ليكون قيداً على حريته .. الحرية .. وتساءلت : « ماذا يحدث لو منحت لتلك الحيوانات حريتها ، داخل الحديقة ؟ . فكرة رائعة . » .

لم أذهب فى حياتى إلى الأدغال ، ولم أعش دقيقة واحدة فى غابة من غابات السودان مثلا ، أو أحراش أوغندا .. ترك الحارس مهمته فى إطعام السبع والنمر وانصرف .. دنوت من قفص السبع أشهده وهو يتناول طعامه .. كم هو جميل !! كم هو رائع الحسن !! كم هو لطيف !! لماذا إذن سجنوه خلف القضبان ؟ ..

عرفت من حكايات جدتى ، ومن كتب القراءة المدرسية أن

الوحوش لاتضر بالإنسان مادامت معدتها مليئة بالطعام .. الوحش لا يضر أحداً إلا إذا جاع ، فالجوع كافر .. إذن لو أشبعناه لن يضر أحداً .. لن يسىء استخدام حريته .. لقد انتهى من تناول طعامه .. على أن أطلق سراحه وأجرب ، فلن يضر أحداً .. سيستحى أن يضر أحداً ومعدته مليئة بالطعام إلا إذا كان حارسه قد حجز نصيباً له ولأسرته وكمية أخرى يبيعها للجيران .. وسأعيده — الوحش — إلى القفص قبل أن يشعر بالجوع مرة أخرى سأراه وهو يزاول حريته ..

راقت لخيالى الفكرة .. تمايلت حتى فتحت الزنزانة .. خرج السبع مهرولا ، وتبعه النمر .. اعتلى خيالى الجنون .. كل الحيوانات تناولت غداءها . كلها يجب أن تنعم بحريتها حتى تتنفس نسيم الحرية .. ولو لمرة واحدة فى العمر .. فلها سنوات طوال وهى حبيسة أقفاصها ولها سنوات كادت تصيب أقدامها بالشلل من كثرة الرقاد . فالزنزانة ضيقة . وأكثر ضيقاً على من فقد حريته .. كل الحيوانات تركت زنزاناتها وخرجت ، تجرى وتلهو وتلعب حرة طليقة .. والسبع يتجول فى الحديقة أشبه بملك .. لم تأت تسميته « ملك الغابة » عبثاً فهو ملك بما يملك من قوة ومن جمال ومن حسن ومن هيبة ..

القرود تتقافز من شجرة إلى شجرة .. والحمار الوحشى يصطنع

قاطعاً الحديقة بالطول والعرض ، والفيل يتهادى مداعبـــاً أوراقه الأشجار بخرطومه .. والغزال يتقافز فى خفة ورشاقة .. والطاووس يتخايل فى طيرانه من مكان إلى مكان .. والدب يهرول والذئب يعوى بصوت يدوى فى الحديقة فى سرور بالغ ..

دوى فى الهواء صوت صفارات الحراس .. وما أن انطلقت الصفارات حتى ساد الحديقة كلها ذعر مميت . ورعب قاتل .. هاجت الحيوانات التى خرجت اثرها لتشم أريج الحرية .. وبدأ بعضها يبغى الفرار ، وبعضها يبغى الاختفاء ، وبعضها يبغى استعمال القوة وبعضها يبغى التخلص من الحراس .. وبدأت بوادر معركة كبرى الحراس يمسكون بنادقهم .. والحيوانات تكشر عن أنيابها ، وتتباعد .. يبدو أنها لا تريد الدخول فى معركة .. لكن الحراس فى إصرار وعناد يبغون العراك ..

قادنى السبع وأنا أسير إلى جواره ، وفى حمايته ، إلى جزيرة الشاى .. رآنا المشاق نسير جنباً إلى جنب .. لم يصدق أحدهم عينيه كانت دهشتهم أكبر من أن تتحملها نظراتهم ، أو انفراج شفاههم .. كانت أكبر من الخوف الذى دب فى قلوبهم ، والذعر الذى غشى صدورهم .. ضحك بعضهم وقال :

— يبدو أنه سبع مستأنس ..

كانت ضحكته صفراء باهتة .. ردت عليه محبوبته هاربة إلى حضن الخيال :

— قد يكون قطاً كالذى رأيناه فى فيلم ...

وعبثاً حاولت تذكر اسم الفيلم ..

توقف حبيبها وقال وهو يتلفت حوله وأوصاله كلها ترتعد .. ينظر إلى أى مكان يمكن أن يلجأ اليه محتمياً به :

— لكن ماهذه الزوبعة ؟ .. صفارات الإنذار و ...

وقبل أن يتم كلامه لم يجد أمامه سوى البحيرة الصغيرة فألقى بنفسه فيها .. حبيب آخر ترك حبيبته وتسلق شجرة من أشجار الجزيرة .. الرجال معظمهم أصابهم الجبن .. وسيطر عليهم الخوف والرعب .. أما النساء فقد شعرن للوهلة الأولى بالخوف ، ثم لم يجدن كما بدا مفراً من السيطرة على الأعصاب ، فيبدون فى لطفهن المعهود ، ورقتهن التى تلين الحديد ، وتقدمن ناحيتنا .. بعضهن مسحن على ظهر السبع فى حنان .. وبعضهن سرن وراءنا مبتسمات .. وكن ينظرن إلى فى تساؤل كأنهن يقلن :

— ماهذا الذى يصحبك ؟

قلت لهن رداً على تساؤلهن الصامت :

— أنه سبع الحديقة .. تناول غداءه فأخرجته ليتمشى .. لينعم بحريته ..

كن حولنا كالفراشات ، هائمات .. وما أن تجد الواحدة فرصتها بظهور أول ضوء للنهار ، حتى تطير خارجة من النافذة .. فما أن تجد إحداهن فرصة للهرب لا تتوانى عن استغلالها .. إحداهن احتمت بأحد الحراس يسدد بندقيته ناحية السبع . وأخرى هرولت ناحية باب الحديقة وألقت بنفسها فى الشارع خارجها .. وثالثة قفزت داخل قفص من الأقفاص وأغلقت بابه عليها بإحكام .. أما الرجال فكانوا فوق الأشجار يصرخون ويتصايحون . والأطفال يلهون كأن شيئاً لم يحدث قط ، بل ازدادوا سروراً ..

فجأة انقلبت الدنيا رأساً على عقب .. سمعت من أحد مكبرات الصوت :

— دع السبع يا مجنون ..

لم أعرهم أدنى انتباه .. فأنا فى حماية الملك .. حقيقى أنه بطلقة واحدة يمكن الاجهاز عليه ، لكنه سيكون خسارة قومية كبرى .. وهنا تعليمات سمعتها منذ لحظة بألا يتهور أحد باطلاق النــار على الحيوانات ، إلا فى حالة اليأس التام .. لم ألتفت إليهم .. فلم أتبين

من بعيد أن أحداً ممن يمسكون بالبنادق قد دنا أو تقارب من مرحلة اليأس التام ..

سعيداً أنا في تجوالي بصحبة سبع الغابة .. ملكها المتوج .. وكان السبع سعيداً لأنه حر .. سعيد بجنون الحرية وقد بدأ بنتابه .. بدأت خطواته تتسع .. بدأ يجرى في تؤده .. بدأت الحيوانات تفزع منه وتفر .. وتفسح له الطريق .. بدأ الحراس يضعون أصابعهم على الزناد .. بدأت مكبرات الصوت تولول صارخة :

— احترسوا أيها الحراس .. احموا أنفسكم فقط .. لاتطلقوا النار . سنقدم للحيوانات جميعها طعاماً به مخدر .. سيكون كل شيء على مايرام ..

لكن الحيوانات — كما خلقها الله — خرساء لاتتكلم .. أحياناً تفهم لكنها لاتفكر .. تحيا لتأكل وتتوالد وتتكاثر .. تطبق سنة الحياة كما وجدت في الحياة .. اعتادت منذ أمد طويل أن تعيش داخل الأقفاص . أو خاضعة ذليلة لملك الغابة خوفا من جبروته ..

الحيوانات تتطوح يمنة ويسرة من أثر المخدر سريع المفعول .. السبع يسير متمايلا كما السكران ، ويلوك قطعة ضخمة من اللحم —

ينظر إلى بعينين محمرتين ، وكأنه يلومنى على منحه حريتــــه التى أسهدته .. وأرقته ، وحولت ليله إلى نهار .. الحيوانات جميعها تهجع ، ويخيم على الحديقة صمت مريب ..

يلتقط الحراس أنفاسهم .. ويعودون إلى صوابهم .. ويبدأون فى نقل الحيوانات المخدرة إلى أقفاصها .. ويخرج المسئولون عن الحديقة وعن الأمن من مكامنهم .. ويحيطون بى ، ويكبلوننى ، ويقتادوننى إلى قفص السبع . ويلقون بى داخله .. أفيق .. وأصرخ . وصراخ يدوى خلفى :

— ابتعد .. سيقتلك السبع !!

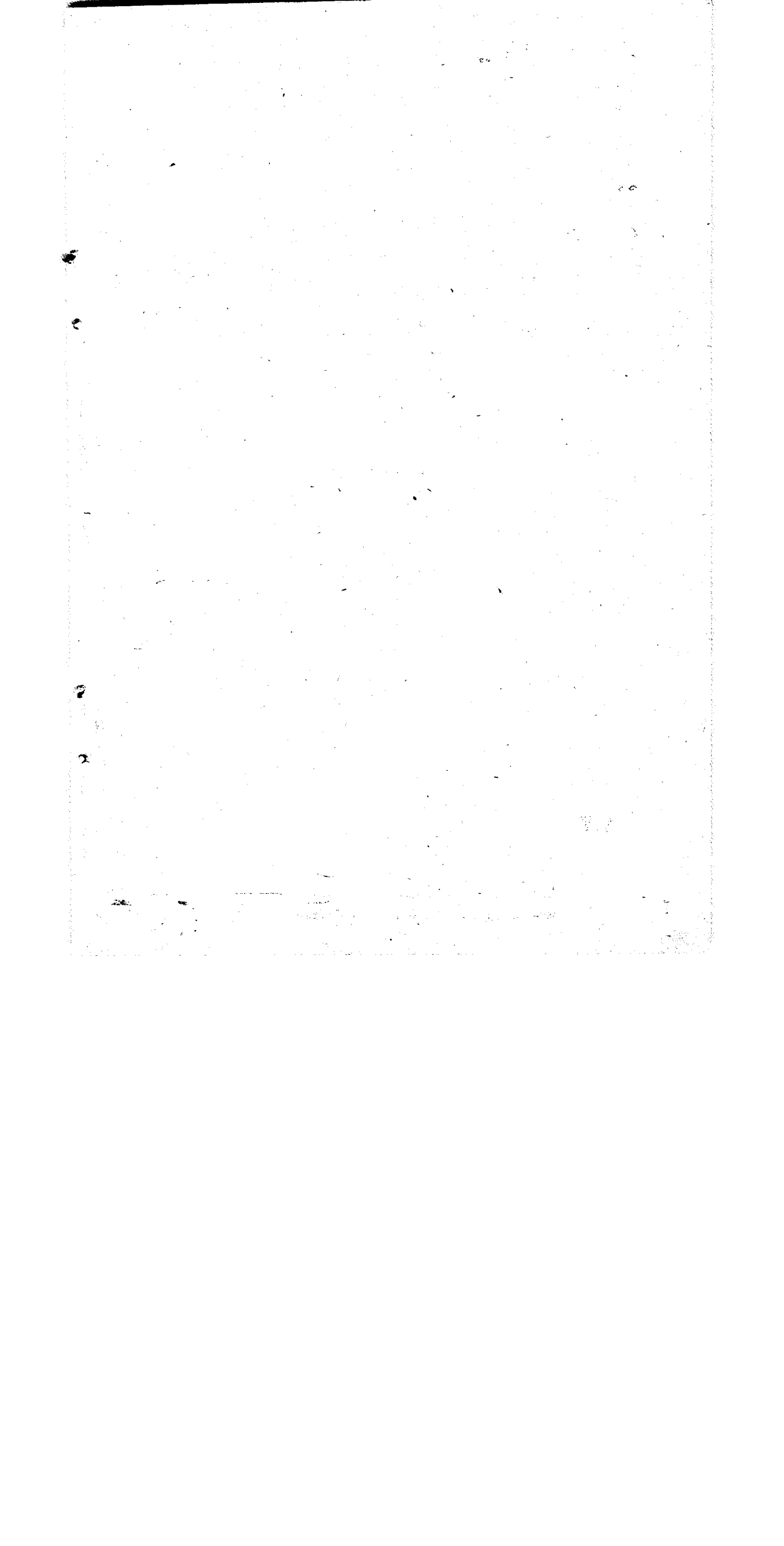
ولاأشعر بجذبة قوية تلقى بى أرضا والحارس يقف فوق رأسى ناظرا إلى فى غيظ شديد قائلا مهددا :

— أمجنون أنت .. ؟ كان السبع على وشك أن يلتهم ذراعيك ..

تذكرت أنى رفعت ذراعى وأسندتهما إلى قضبان قفص السبع .. وأخذت أنظر إليه مشدوها بقوته . مأسورا بجماله وهندامه .. تركنى لى وسرح مع خيالى .. تذكرت أنى كنت على شفا الوقوع فى مصيبة كبرى .. نظرت إلى الحارس ، لا أنا شاكر له إنقاذى ، ولا أنا ناقم عليه الحرص على حياتى .. وإنما شعرت برغبة حقيقية فى

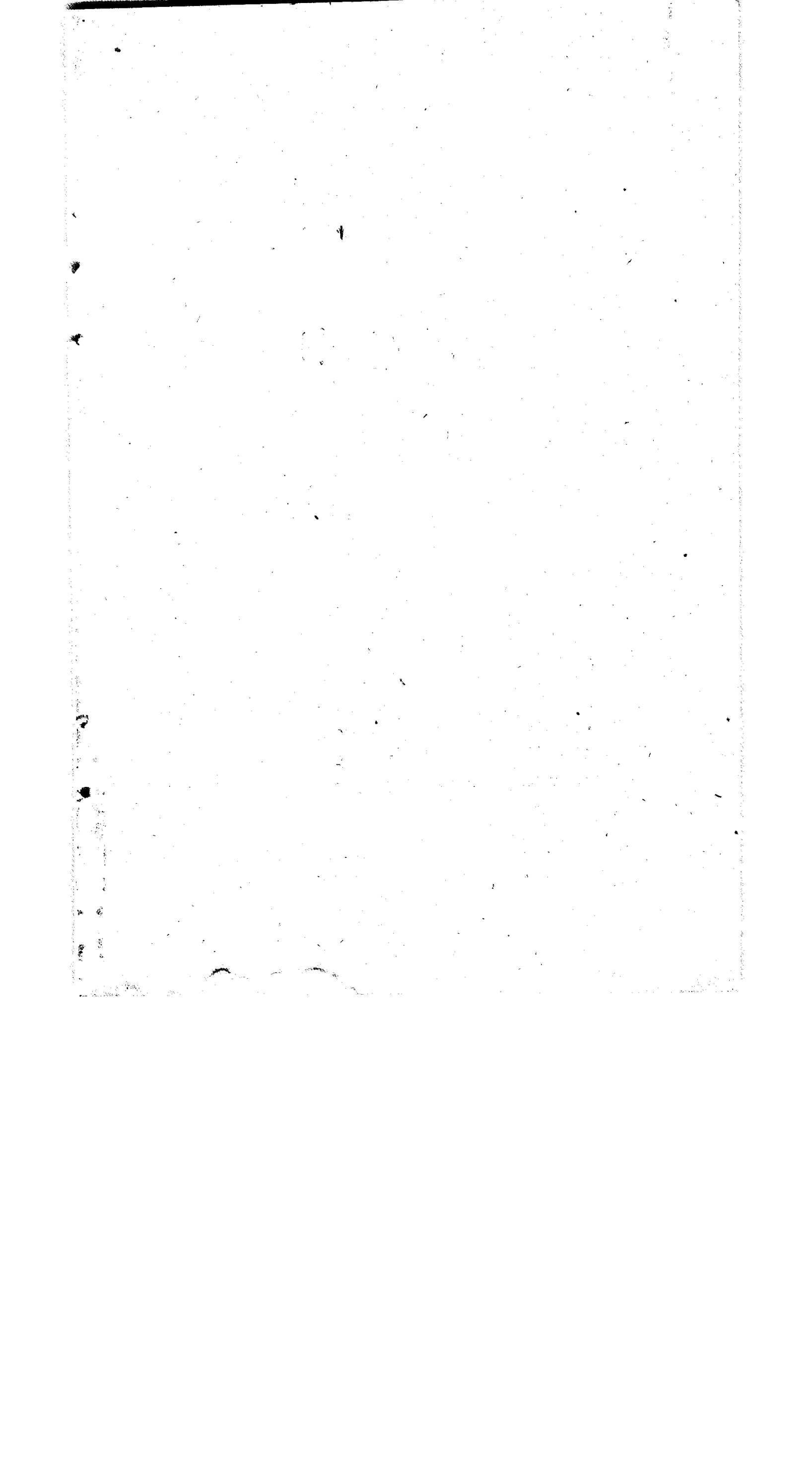
تحطيم القضبان . وإطلاق سراح الحيوانات جميعها .. وتمنيت أن يشاهدنى ملك الغابة نفسه الأسير . استخدام الحرية التى سأمنحها له كى يمنحها لرعاياه ..

ودعت الحديقة وأنا أضحك ، وأبكى . . وأخلط بين النقيضين . . بل أمزجهما مزجا .. وأرجهما رجا فى معدتى حتى تختلط أمام عينى كل المرئيات ، وتمتزج كل المسميات ...



الجواد الفائز

«ضربني الجواد الأحمر وخسرت الرهان..
لو كان معي في تلك اللحظة مسدساً لأفرغت
في جسده عشرات الطلقات انتقاما منه ..»



كنت فى طريقى إلى النادى لحضور سباق الجياد .. استوقفتنى إشارة مرور المشاة الحمراء .. فجأة سيطر على خيالى اللون الأحمر رغم أنه ليس أجمل الألوان .. فهل لأنى أراه رمزاً للنادى الأهلى الذى أشجعه؟ ربما لهذا السبب فأنا مثل ملايين العشاق متحيز للنادى الأهلى تحيزاً أعمى .. أكاد أصل إلى حد الجنون فرحاً لانتصاره أو حزناً لانهزامه .. ليس ذلك وحده كل ما يحمل اللون الأحمر يسيطر على خيالى، بل هناك الكثير من الأشياء وأسأل نفسى لماذا يغلب عليها اللون الأحمر؟! .. هناك أتوبيسات النقل العام وطابع طلاؤها أحمر ، والمؤسسة تضم آلاف العمال الذين يتباينون فى ميولهم الكروية وقد صارت الكرة عندنا أهم أحداث الساعة طوال الموسم الكروى .. يوجد بين هؤلاء العمال مشجعون لنادى الزمالك وآخرون لنادى الترسانة .. لم نسمع يوماً عن تذمر واحتجاج مشجعى نادى الزمالك والفانلة البيضاء؟! لكون الطلاء المميز للأتوبيسات أحمر .. ولو حدث فرضاً أتوقع أن يقال لهم نصف الأتوبيس الأسفل لونه أحمر ونصفه الأعلى لونه أبيض ، ولا بد أن يدحض هذا القول أى احتجاج أو أى انقسام أو أى تطاحن يمكن أن يحدث على سطح الحياة يخص اللونين .. ليتنى اكتشف هذا اللون الذى ينشر السلام بين الألوان !!

عشقت وأنا صغير اللون الأحمر .. كان ذلك قبل أن أعرف شيئا عن فن الكرة ، وقبل أن أصير مشجعاً مجنونا للفانلة الحمراء .. كنت احتفظ بالقلم الأحمر ، دم الغزال ، فى حافظة كتبى ، ألون به معظم الخطوط المتكسرة التى أسميها رسما .. علاوة على فائدته الجمة فى تزوير الدرجات التى يمنحها لى المدرسون فى كراساتى وبخاصة الاملاء .. الرقم ستة من السهـــل تحويله إلى الرقم تسعة ، وتصبح الدرجة تسعة من عشرة .. كان أبى لا يهمه فى كراساتى كلها إلا كراسة الاملاء .. كان كل الدرجات ترضيه بفضل تزوير قلمى الأحمر ، واستمر الحال مدة طويلة إلى أن وشى بى أخى الأصغر وكان جزائى علقة ساخنه ، وحرمانى من أى قلم أحمر .. ليس ذلك فحسب وإنما اعتاد أبى بعد تلك الوشاية أن يذهب إلى المدرسة ويستفسر عن أحوالى من المدرسين أنفسهم .. كرهت القلم الأحمر لأنه تسبب فى كشف حيلى وألاعيبى وفضح كذبى وعرضنى للعقاب .. ازدادت كراهيتى له يوم كنت ألعب الكرة مع بعض رفاقى .. دفعنى أحدهم فسقطت على وجهى واصطدمت أنفى بالأرض فاندفع الدم بلونه الأحمر .. ارتعبت وصرخت وبكيت .. بعد ذلك عرفت أن الفصد هو خروج الدم الفاسد من الجسم ولا خوف منه ، ومن دراستى عرفت أن الدم الأحمر يجرى فى عروق وأوردة جسم الانسان والحيوان على السواء .. أدهشنى كثيرا أن أجد اللون الأحمر غالبا على كل الألوان

فى شتى مظاهر الحياة .. كان أبى يضع فوق رأسه طربوشا أحمر ومثله كل المصريين .. كل المديرين والوزراء والعظماء يضعون فوق أبواب صالوناتهم لمبة حمراء .. معظم الاعلانات ولافتات المحال العامة والخاصة يغلب عليها اللون الأحمر .. كل مانشيتات الصحف والمجلات لونها أحمر .. وأخيرا وليس بآخر كل شفاه الجنس الناعم تطلى باللون الأحمر .. كل جميل يقال له « يا أحمر الخدين» لست شاذا إذن فى تحولى من الكراهية إلى الحب للون الأحمر.

دلفت إلى داخل النادى وكان هناك فسحة من الوقت قبل بدء السباق .. تناولت شطيرة جبن وجلست أدخن وأنا افكر على أى جواد أراهن ؟ .. أيهما مؤكد فوزه فى السباق .. اعتدت فيما مضى أن أراهن على الجواد الأبيض .. لونه يستهوينى .. أشعر بهدوئه ورقته ونعومته ، تعلقت به لأنه كان دائماً يفوز ويحقق لى كسبا رائعاً صحيح إنى كنت أقف على أطراف أصابعى وأنا أتابعه آخذ شهيقاً كل ثلاث أو اربع دقائق غير مدرك لما فى ذلك من خطورة على القلب أشعر بخفوت ضرباته وأكاد أسقط ضحية اسفكسيا الخنق .. وعندما يفوز أرنو إليه بعين الشكر والامتنان .. كان هناك فى الحلبة جواد أحمر شرس قوى وسريع يتهددنى فى كل مرة بخسارة الرهان ، ولا أدرى حتى لحظتى سر تقاعسه عن بلوغ النهاية رغم أنه كان يقطع شوطا طويلا فى حلبة السباق متقدما على جوادى الأبيض ..

كان يبدو لى أنه يخشى الوصول إلى النهاية وكأن فى الوصول اليهـــا نهايته ..

الجواد الأحمر عليه لعنة الله .. لا أنسى أننى ذات يوم كنت على شفا الافلاس معى مبلغ ضئيل لا يكفى استمرارى فى الحياة يومين أو ثلاثة أيام ، وعلى أن أبقى حيا عشرة أيام حتى يأتينى المال مرة أخرى .. ذهبت إلى النادى طمعاً فى فوز جوادى الأبيض وكسب الرهان وينتعش جيبى .. تناولت غذاء شهيا واشتريت سجائرى ودفعت فى الرهان ما بقى فى جيبى .. وجاءت الضربة المباغتة القاسمة .. ضربنى الجواد الأحمر وخسرت الرهان .. لو كان معى فى تلك اللحظة مسدسا لأفرغت فى جسده عشرات الطلقات انتقاما منه .. لم أجد لدى غير اللعنات أصبها عليه ، وخرجت أفكر فيمن استدين منه مرغما فالاستدانة عندى انتحار بغيض ..

كنت أذهب بعد ذلك للفرجة فقط .. رأيت الجوادين الأبيض والأحمر يتصارعان ويهلكا أبدان المراهنين وكأنهما ناديا الأهلى والزمالك .. لم استطع التخلص من داء المقامرة .. الجواد الأبيض يشدنى من جيبى ، راهنت مرة وكسبت .. وعدت ثانية إلى المقامرة .. عاصرت فترة التأرجح وفى كل مرة أجد نفسى فى مأزق حرج .. على أن اختار وفى حرية أحد

الجوادين الصراع بينهما على أشده .. كلاهما يخسر وكلاهما يكسب .. أقف مفكراً : أيهما سيفوز ؟ انها المرة الأخيرة التى ارتاد فيها هذا المكان .. فقد كبرت مسئولياتى نحو بيتى وأولادى .. لا بد من الإقلاع عن المقامرة واتخاذ السلامة طريقاً .. أقف مفكراً : أيهما أراهن عليه ؟ لجأت إلى لعبة تعلمتها فى صغرى . . اخذت أشـــير إليهما وأردد فى نفسى « حادى بادى سيدى محمد البغدادى شالوا وحطوا وكله على الجواد الأحمر » . . أنظر إليه فيبدو أمام عينى هزيلا لا يوحى بالثقة .. ألعب لعبة أخرى يعرفها المحبون حينما يرغبون فى استطلاع الغيب ليعرفوا ما فى قلوب أحبائهم . . نزعت وردة من حديقة النادى ولا أدرى لحسن الحظ أم لسوئه أم مصادفة كان لونها أحمر . . تنهدت وأنا أتخذ مجلسى وإصبعى تنزع عنها أوراقها ورقة ورقة وأهمس فى نفسى « أبيض . . أحمر . . أبيض . . أحمر . . أبيض . . » بقيت ورقة واحدة معلقة . . ألقيت بها فى عنف تحت قدمى وسحقتها تماماً والكلمة معلقة على طول لسانى . . لم أستطع النطق بها . . قلت مؤنباً نفسى : « لا . . ينبغى أن أفكر بطريقة أخرى . . طريقة جديدة مبتكرة . . » شردت أبتكر . . ينبغى أن أبتكر لعبة جديدة تحل محل اللعب القديمة المستهلكة لعلها فى المستقبل القريب تصير لعبة شائعة كاللعبتين السابقتين ويحفظ التراث الشعبى لى فضل ابتكارها . . وتلعبها الأجيال من بعدى . .

كان ذهني نشطاً للغاية . . ها هي بداية اللعبـــة . . كلمة أبيض أربعة حروف ، وكلمة أحمر مثلها . . أشعلت عود الثقاب لأدخن سيجارتي السادسة . . أي الجوادين سيفوز كي أراهن عليه وأكسب الرهان ؟ فإنني في ضائقة مالية ومثقل بالديون . . لا أجد في نفسي الجرأة على الذهاب إلى صديق للاستدانة . . لم يعد لي صديق اقترضت منه مالا ورددته إليه . . كل معارفي يقولون عني أني نصاب . . ليس أمامي لو خسرت الرهان سوى السرقة رغم اني لم أتعلم هـذا الفن بعد أجدني مضطراً . . خلفت ورائي في البيت ســـتة أفواه تطالبني كل صباح بألفي رغيف ، وأربعة أطباق فول على الأقل . . هذا الإفطار فقط ، فما بالي بتكاليف الغداء والعشاء لستة أيام أخرى ، حبل المشنقة يلتف حول عنقي . . لا يوجد بعلبتي سوى سـيجارة واحدة . . لن أدخنها . . حتما سأحتاج إليها سواء فزت بالرهان أم خسرته . .

أخرج السياس الجياد لترويضها . . رأيت جوادي الأبيض وديعاً لطيفاً يهز ذيله في مرح . . يهز ذيله في هدوء ، وحانت مني التفاتة إلى الجواد الأحمر فرأيته يضرب مروضه بذيله في شراسة . . رفع رجليه الخلفيتين محاولا إسقاطه من فوق ظهره ، رأيت الكثيرين يندفعون للمراهنة عليه . . ترددت كثيراً في الاندفاع وراءهم فكل ما أخشاه وما يصيبني بالرعب أن أفقد نقودي ثم بيتي وزوجتي

وأولادى .. وأجد نفسى فى النهاية مدفوعاً إلى قطع شريانى ويقبنق اللون — أقصد الدم — الأحمر معلناً نهايتى ..

عدت ثانية إلى لعبتى التى ابتكرتها .. ولم أتمها .. كلمة أبيض تتكون من الألف والباء والياء والضاد .. وكلمة أحمر تتكون من الألف والحاء والميم والراء .. بدأت تدور فى ذهنى خناقة بين الحروف .. كل حرف يبغى أن تكون له الصدارة .. لكننى المبتكر وعلى أن أرتبها حسب تفكيرى .. لو أخذت الحرفين الأولين من كل كلمة تتكون كلمة « أباح » وهى غير ذات معنى فى أى قاموس وان كانت تبدو كاسم تفضيل للكلمة العامية « أبيح » أى « قبيح » ، ليكن إذن الحرفين الأخيرين من كل كلمة .. آه .. رأسى يدق .. الصداع يشطر رأسى نصفين .. لقد تكونت كلمة « يضمر » وهى كلمة تقترن بالشر دائماً ..

تناولت قرص اسبرين وابتلعت كوب ماء .. ما زال ذهنى يكد ويكد فى التفكير واللعبة تشدنى إلى الاستمرار .. سأعكس هذه المرة وضع الكلمتين بحيث تكون كلمة أحمر قبل كلمة أبيض .. لم يعطنى الحرفين الأولين من كلهما كلمة منطوقة .. فلأنتقل إلى الحرفين الأخيرين .. حصلت على كلمة « مريض » لم يعد أمامى غير أن أغمض عينى فى لعبة الاستغمابة فترة قصيرة وأشير إلى جانب من

الحلبة التى يتربض فيها الجوادان وأفتح عينى وأراهن على الجواد الذى أشـــير ناحيته .. بدت الخسارة قريبة .. خفت المجازفة .. عدت إلى لعبتى الجديدة ولكن خناقة بين الحروف .. ماذا غير كلمتى « يضمر ، مريض » اللتين حصلت عليهما فى الشوط الأول .. حصلت على كلمتى « ضمرى ، ريضم » ليس لدى قاموس للكشف عن معناهما .. بقيت المحاولة الأخيرة وتنتهى اللعبة .. سآخذ الحرف الأخير من كلمة أبيض (ضاد) ، والثالث من كلمة أحمر (ميم) ثم العكس .. الثالث من كلمة أبيض (ياء) .. والأخير من كلمة أحمر (راء) .. فزعت من مجلسى ووقفت .. الكلمة تتضخم وتتضخم حتى تشمل كل شيء أمام عينى .. أول كلمة صحيحة منطوقة لا تنتهى إلى الخير أو الشر .. ولا إلى أو المرض .. ولا تحتاج الصحة إلى قاموس للبحث عن معناها ..

انتهت الخناقة ، انتهت لعبة الحروف الأبجدية .. حققت لعبتى المبتكرة نجاحاً باهراً .. وقفت أمام ضمير لا يرضى بالجواد الأبيض ليراهن عليه ، ولا يرضيه الجواد الأحمر .. فكرت بضع لحظات وسألت نفسى وأنا أشمل الناس جميعاً فى حلبة السباق بنظرة حزينة : لماذا لا يكون الضمير جوادنا الفائز ؟ ..

وقفت أمام ضميرى أقرأ ما خطه فى لوح جبهتى .. ما الذى أملاه على فى تلك اللحظة الحاسمة ! .. أملى على الإنسحاب من حلبة

المقامرة .. لارهان ، ولا مغامرة .. لا الجواد الأبيض ولا الجواد الأحمر .. لاوفر مالى وأحمى بيتى وزوجتى وأولادى .. ضميرى يحثنى بالبعد عن الألوان وليكن لى لونى الخاص .. لونى المفضل هو لون حقولى الممتدة تعانق الأفق الرحب .. هو لون عيون ابنتى المولودة الصغيرة .. هو لون علم بلادى الأخضر .. آه لو يعود يتوسطه الهلال مطلع كل شهر .. !!

فهـــرس

(تم بحمد الله)

قريبا للمؤلف

قلب الأم

القصة الفائزة بجائزة مجمع اللغة العربية
لعام ٧٤ — ١٩٧٥

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٢٥/١٩٧٧